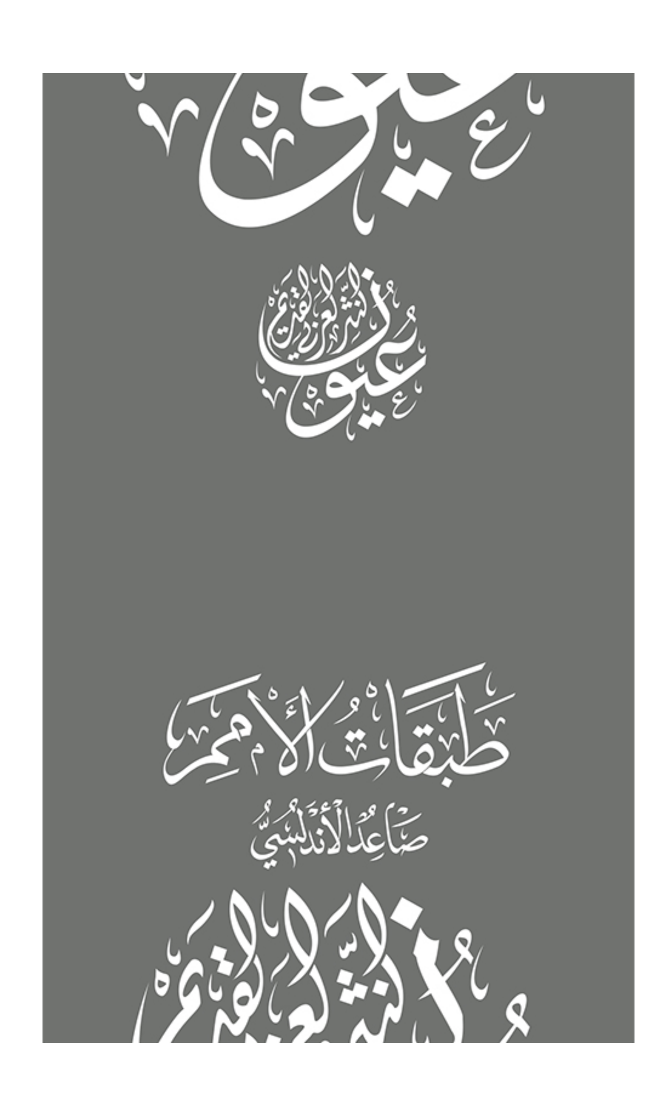


طبقات الأمم

صاعد الأندلسي


عيون الشعر العربي القديم
طبقات الأمم
صاعد الأندلسي


عيون النثر العربي القديم
طبقات الأمم
صاعد الأندلسي

Q153 .S25 2014
أندلسي، صاعد بن أحمد، 1070-1029.
طبقات الأمم/ صاعد الأندلسي؛ إعداد: خليل الشيخ.- ط. 1.- أبوظبي: هيئة
أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2014.
ص. ؛ سم.-(سلسلة عيون النثر العربي القديم)
تدمك: 978 – 9948 – 17 – 344 – 1
1. العلوم -- تاريخ. أ. الشيخ، خليل. ب.العنوان. ج.السلسلة.

إعداد:
د. خليل الشيخ

خطوط:
الفنان التشكيلي الخطاط
محمد مندي





الطبعة الأولى 1435هـ 2014م

أبوظبي – الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380
publication@adach.ae
www.adach.ae

المقدمة

لا نكاد نعرف الكثير عن القاضي أبي القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد التّغلبي الأندلسي (462 - هجرية) صاحب كتاب "طبقات الأمم" سوى ما ذكره ابن بشكوال في كتابه "الصّلة" الذي يقول فيه:

"صاعد بن أحمد بن صاعد التغلبي الأندلسي يُكنّى أبو القاسم وأصله من قرطبة، روى عن محمد بن حزم والفتح بن القاسم، وأبي الوليد (الوقشي) وغيرهم. واستقضاه المأمون يحيى بن ذي النون بطليطلة، وكان متحريًا في أموره، واختار القضاء باليمين مع الشاهد الواحد في الحقوق، وبالشهادة على الخط، وقضى بذلك أيام نظره. وكان من أهل المعرفة والذكاء والرواية والدراية. ولد بالمريّة في سنة عشرين وأربعمئة، وتوفي بطليطلة - وهو قاضيها - في شوال سنة اثنتين وستين وأربعمئة، وصلّى عليه يحيى بن سعيد بن الحديدي".

من المعروف أنّ العرب اهتمّوا بعِلْم الطبقات وهو علم يصدر عن تصوّر يجمع بين التاريخ من جهة، والنوع من جهة أخرى. لهذا عرف التاريخ العربي طبقات الشعراء والفقهاء والنحاة والمتكلّمين والحكّام. لكنّ صاعد الأندلسي يتحدّث في كتابه عن طبقات الأمم. والحديث عن الطبقات لا ينحو البتّة منحًى عرقيًّا يقسّم الأمم بناء على عوامل إثنية تفضي في النهاية إلى توزيع التقدّم والتخلّف على نحو يعيدنا إلى مسألة الطّبائع الثابتة التي برعت أنثروبولوجيا القرن التاسع عشر في الغرب في البحث عن مبرّرات لها في المسألة العرقية، وخاصة في ذلك التمييز بين العرقين الآري والسامي!

يتوقّف صاعد الأندلسي في كتابه عند الأدوار الحضارية للأمم، ولهذا فإنّ الفَيْصَل في ترتيبه للأمم يقوم بالدرجة الأولى على مدى إسهام الأمة في العِلم. ومن الجليّ أنّه كان يصدر عن نظرة إنسانية

أوضحها في مقدمة كتابه، حيث قال:

"اعلم أنّ جميع الناس في مشارق الأرض ومغاربها وجنوبها وشمالها وإنْ كانوا نوعًا واحدًا يتميّزون بثلاثة أشياء، بالأخلاق والصور واللغات". كما كان يصدر عن ثقافة واسعة ومعرفة عميقة جعلته يعي ما بَذَلَته تلك الأمم من مجهودات، وما عرفه العرب من تلك الكتب عن طريق التّرجمة.

لقد قسَّم الجاحظ الأمم التي تنطوي على العلم والأدب والحكمة إلى أربعة هي: العرب والفرس والروم والهند، أمّا البيروني فقد قسّمها إلى ثمانية هي: الروم والإغريق والقبط والإسرائيليون واللخميون والغسانيون واليمنيون وأهل كندة وأمة الإسلام. أمّا في الأندلس فقد سبق ابن حزم، شيخ صاعد الأندلسي، في تقسيم الأمم إلى ثمانية وقد أشار ابن حزم في كتابه الموسوعي "الفصل في الملل والنّحل" إلى شيء من ذلك.

كتب صاعد كتابه حوالي سنة 460 هجرية - وكان في سنّ الأربعين - جمّ النشاط كثير القراءة، يتميّز بالانفتاح على ثقافات الأمم وعلومها. ويبدو أنّ شيئًا من تواريخ الأمم الأخرى كان مبذولًا لهولا عجب في ذلك وهو تلميذ ابن حزم.

يعطي صاعد للّغة دورًا حاسمًا في تشكيل الأمّة، ويقلّل من قيمة الأرض الواحدة والسلطة الحاكمة. يذكر صاعد الأمم السبعة التالية: الفرس والكلدانيين واليونان والقبط والترك والهند والعرب. وهو يضيف العبرانيين إلى تلك الأمم بوصفها من الأمم التي اهتمّت بالعِلم. وهذا أمر طبيعي، فقد لعب يهود الأندلس دورًا حضاريًّا مهمًّا في أثناء الوجود العربي، وهو ما يعكس التّسامح الحضاري الرفيع للعرب ولمنجزهم الحضاري.

وقد كان صاعد يضع الأمّة التي يتحدّث عنها في سياقها الجغرافي والتاريخي والديني. لكنّ المعلومات التي كان صاعد يذكرها عن الأمم تتفاوت بحسب المصادر المتوافرة يومها، ففي حين يستمدّ الكثير من معلوماته عن الهند من "كليلة ودمنة، فإنّه يتوسع توسًّعا واضحًا وهو يتحدّث عن اليونان، توسًّعا يشير إلى وفرة المصادر وبخاصة الفلسفية منها. فصاعد يتحدّث عن أرسطو حديثًا ضافيًا، كما أنَّه يتحدَّث عن الأطبّاء الفلاسفة حديثًا موسًّعا من أمثال أبقراط، وكذا الحال فيما يخصّ علماء الرياضيات والفلك. وهنا يتوقّف صاعد ليتحدّث باستفاضة عن الترجمة التي تمّتْ في الحضارة العربية الإسلامية في مجالات الفلسفة والطبّ والرياضيات وغيرها من العلوم، ويشير على نحوٍ موثقٍ إلى عمليّات المثاقفة الموسّعة التي تمّتْ والتي أدَّتْ إلى عملية إخصاب واسعة وتقدّم عريض.

والغريب أنَّ معلومات صاعد عن مصر ضحلة، وكذا معلوماته عن الروم. لكنّ حديث صاعد عن العرب يتّسم بالإحاطة والموضوعية والفهم العميق لحركة التاريخ. وهو يبدأ حديثه عن العرب من جاهليتهم وصولًا إلى الأندلس. ولم يكن حديث صاعد إلّا حديثًا عن المنجزات العلميّة على امتداد الحقب السياسية المختلفة.

إنّ كتاب "طبقات الأمم" هو واحد من محطات ثقافيّة، وعلميّة في تاريخ صور الذات والآخر في مرايا الحضارة العربية الإسلامية، صحيح أنَّه يتّسم بالإيجاز والحشد والسّرد المتوالي، لكنّ صاعد كان يهدف - كما يبدو - إلى بناء صورة مكثَّفة موجزة.

طبقات الأمم

اعلمْ أنّ جميع الناس في مشارق الأرض ومغاربها، وجنوبها وشمالها، وإنْ كانوا نوعًا واحدًا، يتميزون بثلاثة أشياء: الأخلاق والصور واللغات.

وزعم من عُني بأخبار الأمم، وبحث في سِيَر الأجيال، وحقَّق عن طبقات القرون، أنّ الناس في سالف الدهور وقبل تَشعب القبائل وافتراق اللغات سبعَ أُمَمٍ.

فالأمَّة الأُولى: الفرس، وكانت مساكنها في الوسط المعمور، وحدّ بلادها من الجبل الذي في شمال العراق المتصل بعقبة حلوان الذي فيه الماهان والكرخ والدينور وهمذان وقمْ وقاشان وغيرها، إلى بلاد أرمينية والباب والأبواب المتّصل ببحر الخزر، إلى بلاد أذربيجان وطبرستان، وغيرها من بلاد خراسان إلى بلاد سجستان وكرمان وفارس والأهواز وأصبهان، وما اتّصل بكلّ هذه البلاد: كانت مملكتها واحدة، مَلِكها واحد، ولسانها واحد فارسي. إلا أنّهم كانوا يتباينون في شيء يَسِيرٍ من اللغات، ويجتمعون في عدد الحروف وصورة تأليفها، ولا يُخرجهم اختلافهم بعد ذلك في سائرٍ الأشياء من تلك اللغة، كالفهلوية والترتدية، وغيرهما من لغات الفُرس.

الأمة الثانية: الكلدانيون، وهم السريانيون والبابليون، وكانوا شعوبًا منهم الكربانيون والأثوريون والأرمنيون والجرامقة، وهم أهل الموصل، والنبط، وهم أهل سواد العراق. وكانت بلادهم في وسط المعمور أيضًا، وهي العراق والجزيرة، التي ما بين دجلة والفرات، المعروفة بديار ربيعة ومضر

والشام وجزيرة العرب اليوم، التي هي الحجاز ونَجْد وتهامة والغور واليمن كلها ما بين زبيد إلى صنعاء وعدن والعروض والشحر وحضرموت وعُمان وغير ذلك من بلاد العرب: كانت البلاد كلُها مملكة واحدة مَلِكها واحد ولِسانها واحد سرياني، وهو اللسان القديم، لسان آدم وإدريس ونوح وإبراهيم ولوط وغيرهم. ثمّ تفرّعتْ اللغة العبرانية والعربية من اللغة السريانية فغلب العبرانيون، وهم بنو إسرائيل، على الشام فسكنوه، وغلبت العرب على البلد المعروف بجزيرة العرب المتقدّم ذكرها، وعلى الجزيرة المعروفة بديار ربيعة ومُضَر فسكنوا جميع ذلك. وانكمشت بقيّة السريانيين إلى العراق وكانت دار مملكتهم العظمى مدينة كلواذا.

والأمة الثالثة اليونانيون والروم والأفرنجة والجلالقة وبرجان والصقالبة والروس والبرغز واللان وغيرهم من الأمم التي حول بحر بنطس وبحيرة مانيطس وغيرها من المواضع التي في الربع الغربي الشمالي من معمور الأرض؛ كانتْ مملكتهم واحدة ولغتهم واحدة.

والأمة الرابعة: القبط، وهم أصل مصر وأهل الجنوب، وهم أصناف السودان من الحبشة والنوبة والزنج وغيرهم؛ وأهل المغرب، وهم البرابر ومن اتّصل بهم إلى بحر أقيانس المغربي المحيط بهم؛ لغتهم واحدة ومملكتهم واحدة.

والأمة الخامسة: أجناس التّرك مِن الجريجية الكرلوك وكيماك والطغزغز والخزر والسرير وجيلان وخوزان وطيلسان وكشكة وبرطاس: كانتْ لغتهم واحدة ومملكتهم واحدة.

والأمة السادسة: الهند والسند ومَن اتّصل بهم، لغتهم واحدة ومَلِكهم واحد.

والأمة السابعة: الصين ومَن اتّصل بهم من سكان بلاد عامور بن يافت بن نوح، مملكتهم واحدة ولغتهم واحدة.

فهذه الأمم السبعة كانت محيطة بجميع البشر، وكانوا جميعًا صابئة يعبدون الأصنام تمثيلًا بالجواهر العلوية والأشخاص الفلكية من الكواكب السبعة وغيرها. ثم افترقت هذه الأمم السبع وتشعّبتْ لغاتهم وتباينتْ أديانهم.

وجَدنَا هذه الأمم على كثرة فِرقهم وتخالف مذاهبهم طبقتين: فطبقة عُنيت بالعلم فظهرتْ منها ضروب العلوم وصدرتْ عنها فنون المعارف، وطبقة لم تعنَ بالعلم عناية تستحقّ منها اسمه وتعدّ بها من أهله، فلم ينقل عنها فائدة حِكمة ولا دوّنت لها نتيجة فكرة. وأما الطبقة التي عنيت بالعلوم فثماني أمم: الهند والفرس والكلدانيون واليونانيون والروم وأهل مصر والعرب والعبرانيون. وأمّا الطبقة التي لم تعنَ بالعلوم فهي بقيّة الأمم بعد من ذكرنا، كالصين ويأجوج ومأجوج والترك وبرطاس والسرير والخزر وجيلان وطلسان وموقان وكشك واللان والصقالبة والبرغز والروس وبرجان والبرابر وأصناف السودان من الحبشة والنوبة والزنج وغانة وغيرهم.

الصين والتّرك

وأَنْبَه هذه الأمم التي لم تعنَ بالعلوم الصين والترك. فأمّا الصين فأكثر الأمم عددًا، وأفخمها مملكة، وأوسعها دارًا، ومساكنهم محيطة بمشارق الأرض المعمورة ما بين خطّ معدّل النّهار إلى أقصى الأقاليم السّبعة في الشّمال، وحظّهم من المعرفة التي بزّوا فيها سائر الأمم إتقان الصنائع العملية، وأحكام المهن التّصويرية، فهم أصبر الناس على مطاولة التّعب وتجويد الأعمال ومقاساة النّصب في تحسين الصنائع.

وأما الترك، فأمّة كثيرة العدد أيضًا، فخمة المملكة، ومساكنهم ما بين مشارق خراسان من مملكة الإسلام، وبين مغارب الصين وشمال الهند إلى أقصى المعمورة في الشمال، وفضيلتهم التي برعوا فيها، وأحرزوا فضلها معاناة الحروب ومعالجة آلاتها، فهم أحذق الناس بالفروسية والثّقاف، وأبصرهم بالطّعن والضّرب والرّماية. وأما سائر هذه الطبقة التي لم تعنَ بالعلوم فهم أشبه بالبهائم منهم بالناس؛ لأن مَن كان منهم موغلًا في بلاد الشمال ما بين آخر الأقاليم السبعة التي هي نهاية المعمور في الشمال، فافراط بُعد الشمس عن مسامتة رؤوسهم برّد هواءهم وكثّف جوّهم فصارت لذلك أمزجتهم باردة، وأخلاقهم فجّة، فعظمتْ أبدانهم، وابيضّتْ ألوانهم، وانسدلتْ شعورهم فعدموا بهذا دقة الأفهام، وثقوب الخواطر، وغلب عليهم الجهل والبلادة، وفشا بينهم العيّ والغباوة، كالصقالبة والبلغر ومَن اتّصل بهم.

ومن كان منهم ساكنًا قريبًا من خطّ مُعدّل النهار وخلفه إلى نهاية المعمور في الجنوب، فطول مقاربة الشمس لسمت رؤوسهم أسخن هواءهم، وسَخُن جوّهم، فصارت لذلك أمزجتهم حارّة، وأخلاقهم محترقة، فاسودّتْ ألوانهم، وتغلغلتْ شعورهم، فعَدِموا بهذا رجاحة الأحلام وثبوت البصائر، وغَلَب عليهم الطيّش، وفشا فيهم النّوك والجهل مثل مَن كان من السودان ساكنًا بأقصى بلاد الحبشة، والنوبة والزنج وغيرها.

وأمّا الجلالقة والبرابرة وسائر سكّان أكناف المغرب من هذه الطبقة، فأمم خصّها الله - عزّ وجلّ - بالطغيان، والجهل، وعمّها بالعدوان والظلم، على أنّهم لم يوغلوا في الشمال فتلحقهم آفة البلد، ولا تمكّنوا في الجنوب فتقضي إليهم طبيعة الموضع، بل مساكنهم قريبة من البلاد المعتدلة الهواء.

وأمّا الجلالقة فمساكنهم في مغارب بعض الإقليم الخامس وما يتّصل به من بعض الإقليم السادس.

وأمّا البُرْبَرُ فمساكنهم في مغارب بعض الإقليم الثاني وما يتّصل به من الإقليم الثالث وبعض الإقليم الرابع، ولكنّ الله تعالى يخصّ بفضله من يشاء، ويَعْدِل بنعمته عمّن يشاء.

وأمّا سائر من لم أذكره بشيء يخصّه من هذه الطبقة، فهم أُسوة هؤلاء في الجهل، وإن اختلفتْ مراتبهم فيه، وتباينتْ قسمهم منه، لأنهم جميعًا مشتركون فيما ذَكَرنا عنهم من أنّهم لم يستعملوا أفكارهم في الحكمة، ولا راضوا أنفسهم بتعلم الفلسفة، إلّا أنّ جمهورهم مع هذا، وهم أهل المدن وخلافهم من أهل البادية، لا يخلون حيثما كانوا من مشارق الأرض ومغاربها وجنوبها وشمالها من سياسة ملوكيّة تضبطهم، وناموس إلهيّ يملكهم. ولا يشذّ عن هذا النظام الإنساني، ولا يخرج عن هذا التأليف العقلي إلّا بعض قطّان الصحارى، وسكان الفلوات والفيافي، كرعاع البُجة، وهمج غانة، وغثاء الزنج ومن أشبههم.

وأمّا الطبقة التي عُنيتْ بالعلم فهم صفوة الله تعالى من خلقه، ونخبته من عباده؛ لأنّهم صرفوا عنايتهم إلى نيل فضائل النفوس الناطقة الصانعة لنوع الإنسان والمقوّمة لطبعه، وزهدوا فيما رغب فيه الصين والترك ومن نزع منزعهم من التنافس في أخلاق النفس الغضبية، والتّفاخر بالقوى البهيمية، إذْ علموا أنّ البهائم تشركهم فيها، وتفضلهم في كثير منها. فأمّا في الصنعة وإحكام التصوير، وإتقان الشّكل، فكالنحل المحكمة لتسديس مخازن قوتها، والعنكبوت المتقنة خيوط بيوتها وتجويد تناسب الدوائر المقاطعة لها، وغيرها من البهائم التي ظهرت منها الصنائع العجيبة، والأفاعيل الغريبة، حتى ضربتْ العرب بها الأمثال، فقالت: أصنع من سرفة[1]، وهي دودة تكون في الحمّص، وتبلغ من صنعتها أنّها تصنع بيتًا مربّعا من عيدان. وقالوا: أصنع من تنوُّط[2]، وهو طائر يبلغ رفقه في صنعته أنْ يجعل عشّه مدلّى من الشجرة. وأمّا في الجرأة والشجاعة فكالأسد والنمر وغيرهما من السّباع التي لا يتعاطى الإنسان إقدامها ولا يدّعي بَسَالتها.

وكذلك أيضًا سائر القوى الحيوانية من الجُود والبخل وغيرهما، فإن بعض البهائم فيها مزيّة على الإنسان. وكذلك ضربتْ العرب بها الأمثال، فقالتْ: أسخى من ديك، وأَخْتَلُ من ذئب، وأجرأ من ليث، ومن ذباب، وأخبث من ثعلب، ومن ضبّ، وأجشع من كلب، وأظلم من حيّة، وأكسب من ذرة ومن نملة ومن دب، وأندّ من نعامة، وأهدى من قطاة، وأحذر من غراب، وأبخل من كلب، وألحّ من الحمى، وأجبن من صفرد، وأروغ من ثعلب، وأصبر من عود، وأحنّ من ناب. وكذلك أيضًا قوى الأجسام، وصدق الحواس، لا ينكر أحد أنّ حظّ بعض البهائم منها أوفر من حظ الإنسان. ولذلك قالتْ العرب في أمثالها: أَبْصرُ من عقاب ومن فرس، وأصحّ من ذئب ومن ظليم، وأضبط من نملة؛ لأنّها تجر النواة وهي أضعافها، وأسمعُ من قُراد، وأسمع من دلدل، وهو القنفذ الضخم، وأسرع من فرس، وسرى هذا مما ضربوا فيه الأمثال بأنواع البهائم.

فلهذا الغرض الشريف، والمقصد الكريم من حب القوى الإنسانية، والكلف بالفضائل الشريفة، والأنفة من مشاكلة البهائم، والإبانة من مشابهة السّباع كان أهل العلم، مصابيح الدّجى، وأعلام الهدى، وسادة البشر، وخيار الأمم الذين فهموا غرض الباري تعالى منهم، وعرفوا الغاية المنصوبة لهم. فصلوات الله عليهم ويا وحشة الدنيا لفقدهم.

اليونـان

كانت أُمّة عظيمة القَدْر في الأمم، طائرة الذِّكر في الآفاق، فخمة الملوك عند جميع أهل الأقاليم. منهم الإسكندر بن فيليبوس المقدوني المعروف بذي القرنين الذي غزا دارَا بن دارَا مَلِك الفرس في عُقر داره، فثلّ عرشه، ومزّق مُلكه، وفرّق جمعهم، ثم تخطّاه قاصدًا إلى ملوك المشرق من الهند والترك والصين، فتغلّب على بعضهم، وانْقَاد له جميعهم، وتلقّوه بالهدايا الفخمة، واستكفّوه بالإتاوات الجَزْلة، ولمْ يزل متردِّدًا في أقاصي الهند وتخوم الصين وسائر أكناف المشارق حتى أجمع ملوك الأرض طرًّا على الطاعة لسطانه، والخضوع لعزّته، والإقرار بأنّه مَلِك الأقاليم، والاعتراف بأنّه رئيس الأرض. وكان بعده من ملوك اليونانيين جماعة يُعرفون بالبطالسة، وأحدهم بطليموس دانتْ لهم الممالك وذلّت لهم الرقاب.

ولم يزل مُلْكُهم متّصلًا إلى أنْ غلبتهم عليه الروم، فانقرض مُلْكُهم من الأرض، وانتظمتْ مملكتهم مع مملكة الروم، فصارت مملكة واحدة رومية، كما فعلت الفرس لمملكة البابليين حين استولت عليها، وصيّرت المملكتين مملكة واحدة فارسية.

وكانتْ بلاد اليونانيين في الربع الغربي الشمالي من الأرض، ويَحدّها من جهة الجنوب البحر الرومي والثغور الشامية والثغور الجزرية، ومن جهة بلاد الشمال بلاد اللان وما حاذاها من ممالك الشمال، ومن جهة المغرب تخوم بلاد ألمانية التي قاعدتها مدينة رومية. ومن جهة المشرق تخوم بلاد أرمينية، باب الأبواب، والخليج المعترض ما بين بحر الروم وبحر نيطش الشمالي بوسط بلاد اليونانيين، فيصير القسم الأعظم منها في حيز المشرق منه، والقسم الأصغر منها في حيّز المغرب منه.

ولغة اليونانيين تُسمّى الإغريقية، وهي من أوسع اللغات وأجلّها.

وكانت عامة اليونانيين صابئة مُعظمة للكواكب دائبة لعبادة الأصنام. وكان علماؤهم يسمّون "فلاسفة"، واحدهم فيلسوف، وهو اسم معناه باللغة اليونانية "محبّ الحكمة".

فلاسفة اليونان

وفلاسفة اليونان من أرفع الناس طبقة، وأجلّ أهل العلم منزلة، لمَا ظهر منهم من الاعتناء الصحيح بفنون الحكمة، من العلوم الرياضية والمنطقية، والمعارف الطبيعية والإلهية، والسياسات المنزلية والمدنية، وأعظم هؤلاء الفلاسفة قَدْرًا عند اليونانيين خمسة: فأوّلهم زمانًا بندقليس، ثم فيثاغورس، ثم سقراط، ثم أفلاطون، ثم أرسطوطاليس بن نيقوماخوس. هؤلاء الخمسة هم المُجمع على استحقاقهم اسم الحكمة عند اليونايين.

فأمّا بندقليس فكان في زمان داود - عليه السلام - على ما ذكره العلماء بتواريخ الأمم. وكان أخذَ الحكمة عن لقمان الحكيم بالشام، ثمّ انصرف إلى بلاد اليونانيين. فتكلّم في خلقة العالم بأشياء تقدح ظواهرها في أمر المعاد، فهجره لذلك بعضهم.

وطائفة من الباطنية تنتمي إلى حكمته، وتزعم أنّ له رموزًا قلّما يوقف عليها. وكان محمد ابن عبد الله بن مسرّة الجبلي الباطني من أهل قرطبة كلفًا بفلسفته، دؤوبًا على دراستها. وبندقليس أوّل من ذهب إلى الجمع بين معاني صفات الله تعالى، وأنها كلّها تؤدي إلى شيء واحد، وأنه إنْ وُصِفَ بالعلم والجودة والقدرة فليس هو ذا معانٍ متميّزة تختصّ بهذه الأسماء المختلفة، بل هو الواحد بالحقيقة لا يتكثّر بوجه ما أصلًا خلاف سائر الموجودات، فإنّ الوحدانيات العالمية معرّضة للتكثير، إمَّا بأجزائها، وإمَّا بمعانيها، وإمّا بنظائرها، وذات الباري متعالية عن هذا كلّه. وإلى هذا المذهب في الصفات ذهب أبو الهذيل محمد بن الهذيل العلاف البصري.

وأمّا فيثاغورس فكان بعد بندقليس بزمان. وأخذ الحِكمة عن أصحاب سليمان بن داود بمصر حين دخلوا إليها من بلاد الشام. وقد كان أخذ الهندسة قبلهم عن المصريين، ثُمّ رجع إلى بلاد اليونان،

وأدخل عندهم علم الهندسة وعلم الطبيعة وعلم الدين، واستخرج بذكائه علم الألحان وتأليف النّغم، وأوقعها تحت النِّسب العددية، وادّعى أنّه استفاد ذلك من مشكاة النبوّة. وله في قصد العالم وترتيبه على خواص العدد ومراتبه رموزٌ عجيبةٌ وأغراضٌ بعيدةٌ. وله في شأن المعاد مذاهبُ قارب فيها بندقليس. من أنّ فوق عالم الطبيعة عالماً روحانياً نورانياً لا يُدرك العقل حسنه وبهاءه، وأنّ الأنفس الزكيّة تشتاق إليه، وأنّ كلّ إنسان أحسن تقويم نفسه بالتبرؤ من العجب والتجبّر والرياء والحسد وغيرها من الشهوات الجسدانية، فقد صار أهلًا أنْ يلحق بالعالم الروحاني، ويطّلع على ما يشاء من جواهره من الحكمة الإلهية، ولذا فالأشياء الملذة للنفس تأتيه حينئذ إرسالًا، لا كالألحان الموسيقية الآتية إلى حاسة السمع، فلا يحتاج أن يتكلّف لها طلبًا. ولفيثاغورس تواليف شريفة في الأرثماطيقي والموسيقى وغيرها.

وأمّا سقراط فكان من تلاميذ فيثاغورس، واقتصر من الفلسفة على العلوم الإلهية، وأعرض عن ملاذ الدنيا ورفضها، وأعلن بمخالفة اليونايين في عبادتهم الأصنام، وقابل رؤوسائهم بالحُجج والأدلّة، فثوّروا العامَّة عليه، واضطروا مَلِكهم إلى قتله، فأودعه الملك الحبس عمدًا إليهم، ثم سقاه السّم تفاديًا من شرّهم بعد مناظرات جرتْ له مع الملك محفوظة. وله وصايا شريفةٌ، وآداب فاضلةٌ وحِكمٌ مشهورةٌ، ومذاهبُ في الصفات قريبةٌ من مذاهب فيثاغورس وبندقليس، إلّا أنّ له في شأن المعاد آراءً ضعيفةً بعيدةً عن مَحْض الفلسفة، خارجةً عن المذاهب المحقَّقة.

وأمّا أفلاطون، فشارك سقراط في الأخذ عن فيثاغورس، إلّا أنه لم يشتهر بالحكمة إلّا من بَعد سقراط، وكان شريف النَّسب من بيت علم، واحتوى على جميع فنون الفلسفة، وصنّف كتبًا كثيرةً مشهورةً في ضروب الحكمة، ذهب فيها إلى الرمز والإغلاق وخرّج جماعةً من التلاميذ، وكان يعلّم الفلسفة وهو ماش، فعُرِفَ هو وتلاميذه بالمشّائين، وفوّض التعليم والمدارسة في آخر عمره إلى ذوي البراعة من أصحابه، وتخلّى عن الناس وتجرّد لعبادة ربّه. فمِن كتبه المشهورة كتاب فادن في النفس، وكتاب السياسة المدنية، وطيماوس الروحاني في ترتيب العوالم الثلاثة العقليّة التي هي: عالَم الربوبيّة، وعالَم العقل، وعالَم النفس، وكتاب طيماوس الطبيعي في تركيب عالم الطبيعة: كتب بهذين الكتابين إلى تلميذ له يُسمّى طيماوس.

وأمّا أرسطوطاليس فهو أرسطوطاليس بن نيقوماخس الجهراشني الفيثاغوري، وتفسير نيقوماخوس، "قاهر الخصم"، وتفسير أرسطوطاليس "تام الفضيلة"؛ حكى ذلك أبو الحسن علي ابن الحسين المسعودي. وكان نيقوماخوس فيثاغوريَّ المَذهب. وله تواليف مشهورة في الأرثمارطيقي. وكان ابنه أرسطوطاليس تلميذ أفلاطون، ويقال: إنّه لازمه عشرين سنة. وكان أفلاطون يُؤْثِره على سائر تلاميذه، ويُسمّيه "العقل". وإلى أرسطوطاليس انتهت فلسفة اليونانيين وهو خاتمة حكمائهم وسيّد علمائهم، وهو أوّل من خلص صناعة البرهان من سائر الصناعات المنطقيّة، وصوّرها بالأشكال الثلاثة، وجعلها آلة العلوم النظريّة حتّى لُقِّب "بصاحب المنطق". وله في جميع العلوم الفلسفيّة كتب شريفة كليّة وجزئيّة، فالجزئية: رسائله التي يُتعلّم منها معنى واحد فقط، والكليّة: بعضها تذاكير يتذكّر بها وبقراءتها ما قد عَلم من عِلمه، وهي السبعون كتاباً التي وضعها لأوفاس، وبعضها تعاليم يتعلّم منها ثلاثة أشياء:

أحدهما: علوم الفلسفة، والثاني: أعمال الفلسفة، والثالث: الآلة المستعملة في عِلم الفلسفة وغيره من العلوم.

فالكتب التي في علوم الفلسفة، بعضها في العلوم التعليمية، وبعضها في العلوم الطبيعية، وبعضها في العلوم الإلهية. وأمّا الكتب التي في العلوم التعليمية فكتابه في المناظر، وكتابه في الخطوط، وكتابه في الحيل. وأمّا الكتب التي في العلوم الطبيعية فمنها ما يتعلم منه الأمور التي تعمّ جميع الطبائع، ومنها ما يتعلّم منه الأمور التي تخصّ كل واحد من الطبائع. فأمَّا الأمور التي يتعلّم منه الأمور التي تعمّ جميع الطبائع فهي: كتابه المُسمّى بسمع الكيان، فهذا الكتاب يُعرّف بعدد المبادئ لجميع الأشياء الطبيعية، وبالأشياء التوالي للمبادئ، وبالأشياء المشاكلة للتوالي. أمّا المبادئ، فالعنصر والصورة، وأمّا التي هي كالمبادئ فليست مبادئ بالحقيقة بل بالتقريب كالعدم؛ وأمّا التوالي، فالزمان والمكان؛ وأمّا المشاكلة للتوالي، فالخلاء وما لا نهاية له. وأمّا التي نتعلّم منها الأمور الخاصة فبعضها في الأشياء التي لا كَوْنَ لها، وبعضها في الأشياء المكَونة. أمّا التي في الأشياء التي لا كون لها فالأشياء التي نتعلّم من المقالتين الأولَيَيْن من كتاب السماء والعالم. وأمّا التي في الأشياء المكوّنة، فبعضها عِلْمها عاميّ وبعضها خاصيّ. والعاميّ بعضه في الاستحالات، وبعضه في الحركات. أمّا الاستحالات ففي كتاب الكون والفساد، وأمّا الحركات ففي المقالتين الأخيرتين من كتاب السماء والعالم. وأمّا الخاصيّ فبعضه في البسائط، وبعضه في المُركّبات. أمّا الذي في البسائط ففي كتاب الآثار العلويّة، وأمّا الذي في المركّبات فبعضه في وصف كليّات الأشياء المُركبة، وبعضه في وصف أجزاء الأشياء المركّبة. أمّا الذي في وصف كليات المركّبات ففي كتاب الحيوان، وفي كتاب النبات. وأمّا الذي في أجزاء المركّبات، ففي كتاب النفس، وفي كتاب الحس والمحسوس، وفي كتاب الصحّة والسقم، وفي كتاب الشباب والهرم.

وأمّا الكتب التي في العلوم الإلهية فمقالاته الثلاث عشرة التي في كتاب ما بعد الطبيعة. وأمّا الكتب التي في أعمال الفلسفة فبعضها في إصلاح أخلاق النّفس، وبعضها في السيّاسة. فأمّا التي في إصلاح الأخلاق فكتابه الكبير الذي كتب به إلى ابنه، وكتابه الصغير الذي كتب به إلى ابنه أيضًا، وكتابه المُسمّى أوديميا، وأمّا التي في السياسة، فبعضها في سياسة المُدن، وبعضها في سياسة المنزل.

وأمّا الكتب التي في الآلة المستعملة في علوم الفلسفة، فهي كتبه الثمانية المنطقيّة التي لم يسبقه أحد ممن عَلِمناه إلى تأليفها ولا تَقدّمه إلى جمعها. وقد ذكر ذلك أرسطوطاليس في آخر الكتاب السادس منها، وهو كتاب سوفسطيقا، فقال: وأمّا صناعة المنطق وبناء السلوجسمات فلم نجد لها فيما خلا أصلًا متقدِّمًا يبنى عليه، لكنّا وقعنَا على ذلك بعد الجهد الشديد، والنّصب الطويل، وهذه الصناعة وإنْ كنَّا ابتدعناها واخترعناها فقد حصَّنْا جهتها، ورمَّمنا أصولها، ولم نفقد شيئًا مما ينبغي أن يكون موجودًا فيها، كما فُقدتْ أوائل الصناعات لكنّها كاملة مستحكمة متينة، أساسها مرمومة، قواعدها وثيق بنيانها، معروفة غاياتها، واضحة أَعْلامها، قد قدُّمت أمامها أركانًا ممهّدة، ودعائم موطّدة، فمن عسى أنْ ترد عليه هذه الصناعة بعدنا فليغتفر خللًا إنْ وجده فيها، وليعتبر مما بلغته الكلفة منّا اعتداده بالمنّة العظيمة واليد الجليلة، ومن بلغ جهده فقد بلغ عذره.

وكان أرسطو طاليس معلمًا للإسكندر الملك بن فيليبوس بن الإسكندر المقدوني، وبآدابه عمل في سياسة رعيّته وسيرة مُلكه، فانقمع له الشرّك في بلاد اليونانيين، وظهر الخير، وفاض العدل.
ولأرسطوطاليس رسائل كثيرة جليلة، منها: رسالة يحضّه فيها على المسير لحرب دارا بن دارا ملك الفرس. ومنها رسالة جاوَبه عن كتابه إليه من أرض الهند يصف فيها ما رآه في بيت الذهب بأعالي أرض الهند، وهو البيت الذي كان فيه "البددة"، وهي الأصنام الممثلة بالجواهر العلوية. فجاوبه أرسطوطاليس بهذه الرسالة يَعِظه فيها، ويزهده في الدنيا، ويرغّبه في النعيم الدائم.

فهؤلاء الخمسة هم سادة الحُكماء عند اليونانيين المعتنون بعلم الفلسفة. ولهم فلاسفة مشهورون غير هؤلاء، مثل: تاليس الملطي، صاحب فيثاغورس؛ وذو مقطراطيس القائل بانحلال الأجسام إلى جزء لا يتجزّأ، وله في ذلك تواليف، وأنكساغورس وغيرهم ممّن كان قبل أرسطوطاليس ومعاصرًا له.

وكان بَعد أرسطوطاليس جماعة سلكوا سبيله وشرحوا كتبه، فمن أجلّهم: تامسطيوس،
والأسكندروس، وفرفوريوس، هؤلاء الثلاثة هم أعْلَم الناس بكتب الفيلسوف، وأقعدهم بكتب علم الفلسفة بَعْده.

ومن فلاسفة اليونانيين المتأخرين الذين كانوا في عهد الإسلام وفي مَمْلكة بني العباس، معاصرًا ليعقوب بن إسحاق الكندي، قسطا بن لوقا البعلبكي الشاميّ، مشهور التحقّق بالعدد والهندسة والنجوم والمنطق والعلوم الطبيعية، ماهر بصناعة الطبّ، وله كُتب مختصرة بارعة منها: كتابه في المدخل إلى الهندسة، المؤلّف على المسألة والجواب لا نظير له، وكتابه في المدخل إلى علم هيئة الأفلاك وحركات النجوم، وكتابه في الفرق بين الحيوان الناطق والصامت، وكتابه في الفرق بين النّفس والروح، وكتابه في نسبة الأخلاط، وكتابه في غلبة الدم، وغير ذلك من كتبه.

علوم الطبيعة

وأمّا علماؤهم وهم المشهورون ببعض علوم الفلسفة المعنيّون بجزء من أجزائها، فكثير. منهم من المختصّين بعلوم الطبيعة والطبّ أبقراط، سيّد الطبيعيّين في عصره، وكان قبل الإسكندر نحو مئة سنة، وله في الطبّ تواليف شريفة، موجزة الألفاظ، جليلة المعاني، ككتاب الفصول، وكتاب تقدمة المعرفة، وكتابه أفيذيميا، وكتاب ماء الشعير، وكتاب الجَنين، وغير ذلك من كتبه. ومنهم جالينوس من أهل مدينة برغمس من أرض اليونانيين، إمام الأطباء في وقته، ورئيس الطبيعيّين في عصره، مؤلِّف الكتب الجليلة في صناعة الطبّ وغيرها من علوم الطبيعة وعلوم البرهان. وقد ضمّ جالينوس أسماء تواليفه إلى فهرسة تشتمل على عدة أوراق، وذكر مرتبة قراءتها، ونبّه على طريق تعلّمها؛ وهي مئة تأليف ونيّف.

وقد قال أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي: كان جالينوس بعد المسيح بنحو مئتي سنة، وبعد أبقراط بنحو ستمئة سنة، وبعد الإسكندر بنحو خمس مئة سنة ونيّف. ولا أَعْلَمُ بعد أرسطوطاليس أَعْلَمَ بعلم الطبيعة من هذين الفاضلين: أعني أبقراط وجالينوس، ومن الطبيعيّين سوى هذين: أستقليباذس وأرسطرخس ولوقس وبولس، وغيرهم ممن اشتهر بالعلم الطبيعي، إلّا أنّ أكثرهم ضعيفُ النظر، بعيدٌ عن الصواب، قد نبّه أرسطوطاليس وجالينوس في كتبهما على خطئهم، وردًّا عليهم آراءهم بالحجج الصحيحة، والبراهين الواضحة.

ومن علمائهم الرياضيين أبلونيوس النجار، صاحب كتاب المخروطات المؤلَّف في علم أحوال الخطوط المنحنية التي ليست بمستقيمة ولا مقوّسة. ومنهم أقليدس الصَّوريّ، صاحب المدخل المشهور إلى علم الهندسة المعروف بكتاب الأركان، وصاحب كتاب المعروضات، وكتاب المناظر، وكتاب تأليف اللحون، وغير ذلك. وقال أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي في رسائله أنّ بعض الملوك اليونانيّين وجد في خزائن الكتب كتابين منسوبَيْن إلى أبلونيوس النجار، ذَكر فيهما صنعة الأجسام الخمسة التي لا تحيط كرة بأكثر منها، فطلب مَن يفكّ له الكتابين فلم يجد إلّا إقليدس، وكان أَعلَمَ أهل زمانه بالهندسة، فبسّط له أمر الكتابين، وشرح له غرض أبلونيوس فيهما، ثم وضع له صورًا للوصول إلى معرفة هذه المجسّمات الخمسة، فقامت من ذلك المقالات الثلاث عشرة المنسوبة إلى إقليدس، ووصله بعد إقليدس بمقالتين ذكر فيهما ما لم يذكره أبلونيوس من نسبة بعض هذه المجسّمات الخمس إلى بعض، ورسم بعضها من بعض.

ومنهم أرشميدس، صاحب نظرية المسبع، وكتاب مساحة الدائرة، وكتاب الكرة والأسطوانة والمخروط. ومنهم فطون، صاحب العدد والمساحة وله فيها كتب مشهورة، كان في آخر مملكة اليونانّيين. ومنهم سنبليقيوس وكان بعد إقليدس. ومنهم خرميدس أبو سندرينوس، ومنهم طيمالاؤس، الراصد للكواكب، الذي ذكر بطليموس بعض أرصاده في كتابه، وذكر أنّ وقته كان متقدِّمًا لوقته بأربعمئة وعشرين سنة. ومنهم منلاوس وتاودسيوس، صاحب الأكر. ومنهم ميطن وأفطيمن الراصدان للكواكب بمدينة الإسكندرية في بلاد مصر، وكانا قبل بطليموس بخمسمئة وإحدى سبعين سنة، ومنهم أبرخس الفاضل صاحب الأرصاد الصحيحة والمباحث الجليلة، وكان بعد منطن وأفطمن بقريب من ثلاثمئة سنة.

ومنهم بطليومس القلوذي صاحب كتاب المجسطي، وكتاب المناظر، وكتاب المقالات الأربع في أحكام النجوم، وكتاب الموسيقى، وكتاب الأنواء، وكتاب القانون الذي استخرجه من كتاب

المجسطي. وكان في أيام أيدريانوس وأيام أنطونين من ملوم الروم، وبعد أبرخس بمئتين وثمانين سنة. وكثير من الناس ممّن يدّعي المعرفة بأخبار الأمم وضعه مع البطالمة اليونانيين الذين مَلكوا بعد الإسكندر. وذلك خطأ بيِّن وغلط واضح؛ لأنّ بطليموس ذكر في كتاب المجسطي وفي النوع الثامن من المقالة الثالثة منه، الجامعة لجميع حركات الشمس وأرصادها وسائر أحوالها، أنّه رصد اعتدالًا خريفيًّا سنة تسع عشرة من سني أدريانوس، فذَكر أنّه تُجمع من أول سني بخت نصر الذي وقّت هذا الاعتدال الخريفي ثمانمئة وتسعة وتسعون سنة، وستة وثلاثون يومًا، وست ساعات.

وجزّأ هذه السنين، فقال أنه يجتمع من أول سنيّ بخت نصر إلى موت الإسكندر، ونعني المقدوني جدّ الإسكندر ذي القرنين، أربعمئة وأربع وعشرون سنة مصرية، ومن موت الإسكندر إلى ملك أوغسطس، يعني أول ملوك الروم، مئتان وأربع وتسعون سنة: ومن أوّل سنة من سني ملك أوغسطس إلى وقت الرصد الخريفي المذكور، مئة وإحدى وستون سنة، وستة وستون يومًا، وساعتان، فبيّن بطليموس بهذا التفصيل والتجميل حقيقة وقته وأنّ عصره كان بعد عصر أوغسطس بمئة وإحدى وستين سنة.

وأجمع أهل العلم بأخبار الأمم السالفة، والمعرفة بتواريخ الأجيال الخالية أنّ أوغسطس هذا ملك رومي، وأنّه تغلّب على قلوبطرة آخر ملوك البطالمة اليونانيين وسلبه ملكه، وأنّه بتغلبه عليه انقرض مُلْك اليونانيين من الدنيا. وفي هذا من تبيين خطأ مَن زعم أنّه أحد البطالمة الملوك ما فيه كفاية.

وإلى بطليموس هذا انتهى علم حركات النجوم ومعرفة أسرار الفَلَك، وعنده اجتمع ما كان متفرًّقا من هذه الصناعة بأيدي اليونانيين والروم وغيرهم من ساكني أهل الشق الغربي من الأرض، وبه انتظم شتيتها وتجلّى غامضها؛ وما أعلم أحدًا بعده تعرّض لتأليف مثل كتابه المعروف بالمجسطي، ولا تعاطى معارضته؛ بل تناوله بعضهم بالشرح والتبيّين، كالفضل بن حاتم التبريزي. وبعضهم بالاختصار والتقريب، كمحمد بن جابر البتاني. وإنما غاية العلماء بعده التي يجرون إليها وثمرة عنايتهم التي يتنافسون فيها، فَهْمُ كتابه على ترتيبه، وإحكام جميع أجزائه على تدريجه. ولا أعرف كتابًا ألّف في علم من العلوم قديمها وحديثها، فاشتمل على جميع ذلك العلم، وأحاط بجميع أجزاء ذلك الفن غيرُ ثلاثة كتب: أحدهما كتاب المجسطي هذا في علم هيئة الفلك وحركات النجوم، والثاني كتاب أرسطوطاليس في علم المنطق، والثالث كتاب سيبويه البصري في علم النحو العربي. فإنّ هذه الكتب الثلاثة لا يشذّ عن كلّ واحدٍ منها من أصول علمه ولا من فروعه إلّا ما لا خَطْب له.

فهؤلاء شموس اليونانيين ومشاهيرهم في الأزمان، الذين انتفع الناس بآثارهم، واستضاؤوا بأنوارهم، واهتدوا بأعلامهم. ولليونانيّين بعد هؤلاء عدّة من الفلاسفة والحكماء، قد قبل المؤلفون حِكَمَهُم وجمعوا نوادرهم.

وذكر حنين بن إسحاق الترجمان، وأبو نصر محمد بن نصر الفارابي المنطقي وغيرهما من العلماء بالفلسفة، أنّ فلاسفة اليونانيين سبع فرق سمّيت بأسماء اشتقّت لها من سبعة أشياء: أحدها من اسم الرجل المعلّم للفلسفة. والثاني من اسم البلد الذي كان فيه مبدأ ذلك العلم. والثالث من اسم الموضع الذي كان يعلّم فيه. والرابع من التدبير الذي كان يدبر به. والخامس من الآراء التي كان يراها في

علم الفلسفة، والسادس من الآراء التي كان يراها في الغرض الذي كان يقصد إليه في تعلم الفلسفة. والسابع من الأفعال التي كانت تظهر عليه في تعليم الفلسفة.

أمّا الفرقة المسمّاة من اسم الرجل المعلّم الفلسفة، فشيعة فيثاغورس.

وأمّا الفرقة المسمّاة من اسم البلد الذي كان منه الفيلسوف، فشيعة أرسطيفوس من أهل قورينا.

وأمّا الفرقة المسماة من اسم الموضع الذي كان يعلم فيه الفلسفة، فشيعة كرسيفس، وهم أصحاب المظلة، سُمّوا بذلك لأنّ تعليمهم كان في رواق هيكل مدينة أثينة.

وأمّا الفرقة المسمّاة من تدبير أصحابها وأخلاقهم فشيعة ديوجانس، ويعرفون بالكلابيّة: وسمّوا بذلك؛ لأنهم يرون اطراح الفرائض المفروضة على الناس في المدن ومحبة أقاربهم وبغضة غيرهم من سائر الناس، وإنما يوجد هذا الخُلق في الكلاب.

وأمّا الفرقة المسمّاة من الآراء التي كان يراها أصحابها في الفلسفة فشيعة فورون، ويسمّون أصحاب اللذّة؛ لأنّهم كانوا يرون أنّ الغرض المقصود إليه في تعلّم الفلسفة اللذّة التابعة لمعرفتها.

وأمّا الفرقة المسمّاة من الأفعال التي كانت تظهر عليها، فشيعة أفلاطون وشيعة أرسطوطاليس، ويعرفون بالمشائين؛ لأنّ أفلاطون وأرسطوطاليس كانا يعلّمانِ الناس وهما يمشيان كيما يرتاض البدن مع رياضة النفس. فهذه طبقات الفلاسفة اليونانيين. وأجلّهم فرقتان: فرقة فيثاغورس وفرقة أفلاطون وأرسطوطاليس، وهاتان الفرقتان هما ركنا الفلسفة وعموداها.

وقد كان قديمًا هؤلاء الفلاسفة ينتحلون الفلسفة الطبيعية التي كان يذهب إليها فيثاغورس، وتاليس المالطي، وعوام الصابئة من اليونانيين والمصريين. ثم مال متأخروهم إلى الفلسفة المدنية، كسقراط، وأفلاطون، وأرسطوطاليس، وأشياعهم. وقد ذكر ذلك أرسطوطاليس في كتابه في الحيوان، فقال: لمّا كان منذ مئة سنة، وذلك منذ زمن سقراط، مال الناس عن الفلسفة الطبيعيّة إلى الفلسفة المدنيّة.

قال صاعد: وقد صنّفت جماعة من المتأخرين كتبًا على مذهب فيثاغورس وأشياعه، وانتصروا فيها للفلسفة الطبيعيّة القديمة. وممّن صنّف في ذلك أبو بكر محمد بن زكريا الرازي، وكان شديد الانحراف عن أرسطوطاليس، عائبًا له في مفارقته معلّمه أفلاطون وغيره من متقدّمي الفلاسفة في كثير من آرائهم. وكان يزعم أنه أفسد الفلسفة وغيّر كثيرًا في أصولها. وما أظن الرازي أحنقه على أرسطوطاليس وحَدَاه على نقضه إلّا ما أباه أرسطوطاليس ودان به الرازي ممّا ضمّنه كتابه في العلم الإلهي وكتابه في الطب الروحاني، وغير ذلك من كتبه الدّالة على استحسانه لمذهب الثنويّة في الإشراك، ولآراء البراهمة في إبطال النبوّة، ولاعتقاد عوام الصابئة في التناسخ. ولو أنّ الرازي، وفّقه الله للرشد وحبب إليه نصرة الحقِ لوَصَفَ أرسطوطاليس أنه محض آراء الفلاسفة، وفحص مذاهب الحكماء فنفي خبثها وأسقط غثّها وانتقى لها واصطفى خيارها، فاعتقد منها ما توجبه العقول السليمة وتراه البصائر النافذة، وتدين به النفوس الطيبّة فأصبح إمام الحكماء وجامع فضائل العلماء.

العلوم عند العرب

أمّا العرب فهم فرقتان: فرقة بائدة وفرقة باقية. فأمّا الفرقة البائدة فكانت أممًا ضخمة كعاد وثمود وطسم وجديس والعمالقة وجُرْهُم. أبادهم الزمان وأفناهم الدهر بعد أن سلف لهم في الأرض مُلْكٌ جليلٌ وخبرٌ مشهورٌ، ولا ينكر لهم ذلك أحدٌ من أهل العلم بالقرون الماضية والأجيال الخالية. ولتقادم انقراضهم ذهبت عنّا حقائق أخبارهم وانقطعت عنّا أسباب العلم بآثارهم. وأمّا الفرقة الباقية فهي متفرعة من جدَّيْن قحطان وعدنان، ويضمهما جميعًا حالان: حالة الجاهلية، وحال الإسلام. فأمّا حال العرب في الجاهلية، فحال مشهور عند الأمم من العزّ والمنعة.

قحطان

وكان مُلكهم في قحطان، ثمّ في سبع قبائل منها، وهي: حِمْيَر، وهمدان، وكِنْدة، ولخْم، ودوس، وجفنة، ومَذْحِج. وكان بيت المُلك العظيم فيهم بنو صوار بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن حيران بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن حِمْيَر وسائر الملوك أتباع لهم. وكان من بني الصوار الجبابرة والتبابعة، أهل الشرف القديم، والعزّ التّليد، والمُلك الموطّد، والمجد المؤثّل، الذين دوّخوا البلاد، وضعضعوا الممالك، وتركوا الآثار العظيمة، والأخبار الشريفة في مشارق الأرض ومغاربها، وجنوبها وشمالها، كيعرب بن قحطان، وسبأ بن يشجب، والحارث الرايش، وأبرهة ذي المنار، وعمرو ذي الأذعار وأفريقس، باني أفريقية. وشمر يرعش باني سمرقند، وتبَّع الأكبر، وتبَّع الأوسط، وتبَّع الأقرن، واسمه أسعد، ويكنّى أبا كرب، وهو الذي يقول فيه أبو تمّام حبيب بن أوس الطائي ويصف عمورية:

وبرزةُ الوجهِ قد أعيتْ رياضتُها

كسرى وصدّت صدودًا عن أبي كربِ

وتبَّع الأصغر، وهو عمرو بن حسان بن أبي كرب.

وكان لهؤلاء الملوك مذهب في إيثار أحكام النجوم، وميل إلى معرفة طبائعها. وزعم أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني في كتاب الإكليل المؤلف في أخبار حِمْيَر وأنسابها أنّ ملوك حِمْيَر لم يكونوا يستعملون من قوّادهم، ولا يصرفون من كفاتهم، إلّا مَن عرفوا مولده، ووجدوا أدلّته من البروج والكواكب موافقة لأدلتهم ومشاكلة لها، وأنّهم كانوا إذا أرادوا غزو أمّة من الأمم تخيّروا لذلك الأوقات السعيدة، والطوالع المشاكلة لمواليدهم، والملائمة لنصب دولتهم، ومكثوا في ارتيادها الأزمان الطويلة حتى تمكّنهم على اختيارهم، فكانوا يبلغون بهذا حيث شاؤوا من المراتب العلِّية والمنازل الرفيعة من الظّفر بالأعداء، وبُعد الصيت في البلاد.

حِمْيَر

قال صاعد: ولم تكن ملوك حِمْيَر معنيةً بأرصاد الكواكب، ولا باختيار حركاتها، ولا بإثارة شيء من علوم الفلسفة، وكذلك كان سائر ملوك العرب في الجاهلية، لم يبلغنا عن أحد منهم كَتَب عن شيء من ذلك.

وأمّا سائر عرب الجاهلية بعد الملوك منهم فكانوا طبقتين: أهل مَدَر وأهل وَبَر.

فأمّا أهل المدر فهم أهل المحاضر، وسكّان القرى وكانوا يحاولون المعيشة من الزرع، والنخل، والكرم، والماشية، والضرب في الأرض للتجارة، وغير ذلك من ضروب الاكتساب، ولم يكن فيهم عالم مذكور ولا حكيم معروف.

وأمّا أهل الوبر فهم قُطَّان الصحارى، وعُمَّارُ الفلوات، وكانوا يعيشون من ألبان الإبل ولحومها، وكانوا زمان النجعة ووقت التبدّي يراعون جهات إيماض البروق، ومنشأ السحاب، وجلجلة الرعد، فيؤمونها منتجعين لمنابت الكلأ، مرتادين لمواقع القطر، فيخيّمون هنالك ما ساعدهم الخصبُ، وأمكنهم الرعيُ، ثم يقومون لطلب العشب، وابتغاء المياه، فلا يزالون في حلّ وترحال كما قال المثقّب العبدي عن ناقته:

تقول إذا درأتُ لها وَضِينِي

أهذا دينُه أبدًا وديني

أكلُّ الدَّهر حلٌّ وارتحال

أمَا يُبقي عليَّ ولا يَقيني

فكان ذلك دأبهم زمان الصيف والقيظ والربيع، فإذا جاء الشتاء، واقشعرّتْ الأرض، انكمشوا إلى أرياف العراق وأطراف الشام، وركنوا إلى القرب من الحواضر والدنوّ من القرى، فشتّوا هنالك مُقاسِين جهد الزمان، ومصطبرين على بؤس العيش، وهم خِلال ذلك يتواسون بقوتهم، ويتشاركون في بُلْغَتهم، ولا ينامون عن إباء الضَّيْم، ونصرة الجار، والذَّبّ عن الحُرَم.

وكانت أديانهم مع ذلك مختلفة، فكانت حِمْيَر تعبد الشمس، ودليل ذلك حكاية الله تعالى في كتابه العزيز عن الهُدهد، إذْ قال لسليمان ـ عليه السلام ـ واصفًا حال بلقيس الحِمْيَرية: (إني وجدتها وقومها يسجدون الشمس من دون الله). قال أبو محمد الهمداني: فلمّا مَلَك سليمان بن داود، وتغلّب على ملوك اليمن وغيرها، رفضت حِمْيَر عبادة الشمس، وتهوّدت.

وقال هشام بن محمد الكلبي: كانت حِمْيَر تعبد الشمسَ، وكنانة القمرَ، وتميم الدَّبران، ولخم وجذام المشتري، وطيّئ سهيلًا، وقيس العبورَ، وأسد عطاردَ، وكانت ثقيف وإياد تعبد بنيانًا على نخلة يُقال له اللّات، ثم عبدت إياد وبكر بن وائل كعبةَ شدّاد. وكان لحنيفة صنمٌ يعبدونه من حَيْسٍ، فلحقتهم مجاعة في بعض السنين فأكلوه، فقال في ذلك بعض الشعراء:

أكلتْ حنيفةُ ربَّها

عام التقحُّم والمجاعه

لم يحذروا من ربّهم

سوء العواقب والتباعه

وقال ابن قتيبة: كانت النصرانية في ربيعة، وغسّان، وبعض قضاعة، وكانت اليهودية في حِمْيَر، وبني الحارث بن كعب، وكِنْدة، وكانت المجوسية في تميم، منهم: زرارة بن عدس، وابنه الحاجب، والأقرع بن حابس، وأبو سود جد وكيع بن حسان بن أبي سود، وكانت الزندقة في قريش، أخذوها عن أهل الحيرة، وكانت عبادة الأوثان فاشيةً في العرب حتى جاء الإسلام.

قال صاعد: وجميعُ عَبَدَةِ الأوثان من العرب موحِّدةٌ لله تعالى، وإنما كانت عبادتهم لها ضربًا من التدين بدين الصابئة في تعظيم الكواكب والأصنام، الممثّلة في الهياكل، لا على ما يعتقده الجهّال بديانات الأمم وبآراء الفِرق من أنّ عبدة الأوثان ترى أنّ الأوثان هي الآلهة الخالقة للعالَم، ولم يعتقد قطّ هذا الرأيَ ذو فكرةٍ، ولا دانَ به صاحب عقل، ودليل ذلك قول الله تعالى عنهم: (ما نعبدهم إلّا ليقربونا إلى الله زلفى).

وإنما جاء نص القرآن لمخالفتهم في البعث والنّشور ونبوة محمد صلى الله عليه وسلّم، فكان جمهورهم ينكر ذلك، ولا يصدق بالمعاد، ولا يقول بالجزاء، ويرى أنّ العالم لا يَخْرب ولا يبيد، وإنْ كان مخلوقًا مبتدَعًا. وكان فيهم من يقرّ بالمعاد ويعتقد أنّ مَن نُحرت ناقته على قبره حُشر راكبًا، ومن لم يفعل ذلك حُشر ماشيًا. وفي ذلك يقول جذيمة بن الأشيم الفقعسي يوصي ابنه:

يا سعدُ إمّا أهلكنَّ فإنّني

أوصيكَ أن أخا الوصاة الأقربُ

لا تتركنَّ أباك يعثر راجلًا

في الحشر يُصرع لليدين ويُنكبُ

واحمل أباك على بعيرٍ صالحٍ

واتقِ الخطيئة إنّ ذلك أصوبُ

ولعلّ لي مما جمعت مطيَّة

في البُهم أركبها إذا قيل اركبوا

فهذه كانت ديانات العرب.

وأمّا عِلْمها الذي كانت تفاخر به وتباري فيه، فعلمُ لسانها، وأحكامُ لغتها، ونَظْمُ الأشعار، وتأليفُ الخطب. وكانت مع ذلك أهل عِلم الأخبار، ومعدن معرفة السِّير والأعصار. وقال أبو محمد الهمداني: ليس يُوصل إلى خبر من أخبار العرب والعجم إلّا بالعرب ومنهم، وذلك أنّ مَن سكن بمكة من العماليق، وجُرْهُم، وآل السميدع بن هونا، وخزاعة؛ أحاطوا بعِلم العرب العاربة، والفراعين العاتية، وأخبار أهل الكِتاب. وكانوا يدخلون البلاد للتجارات فيعرفون أخبار الناس. وكذلك من سَكَن الحيرة، وجاور الأعاجم وحَوَى أخبارهم، وأيام حِمْيَر وسَيَرها في البلاد، وعنهم صدر أكثر ما رواه عبيد بن شريّة، ومحمد بن السائب الكلبي، والهيثم بن عدي. وكذلك من وقع بالشام من سليم وغسان خبيرٌ بأخبار الروم وبني إسرائيل واليونانيين. ومن وقع بالبحرين من تنوخ وإياد فعنه أتت أخبار وبار وطسم وجديس. ومَن وقع من ولد نصر بن الأزد بعُمان ومن يليها فعنه أتى كثير من أخبار ملوك السند والهند وشيء من أخبار فارس. ومَن وقع بجانب طيّئ فعنه أتت أخبار آل أذينة والجرامقة. ومن كان ساكنًا باليمن فإنّه أعلم أخبار الأمم جميعًا؛ لأنّه كان في دار مملكة حِمْيَر، وفي ظل الملوك السيَّارة إلى الشرق والغرب والجنوب والشمال. ولمْ يكن الملك منهم يغزو إلّا عرف البلاد وأهلها. فالعرب أصحاب حفظٍ وروايةٍ، لخفّة الكلام عليهم، ورقّة ألسنتهم؛ لأنّهم تحت نطاق فلك البروج الذي ترسُمه الشمس بمسيرها، وتجري فيه الكواكب السبعة الدّالة على جميع الأشياء.

وكان للعرب مع هذا معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها، وعِلم بأنواء الكواكب وأمطارها على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة، لاحتياجهم لمعرفة ذلك في أسباب المعيشة، لا على طريق تعلّم الحقائق، ولا على سبيل التدرّب في العلوم.

ولأبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري اللغوي كتابٌ شريفٌ في الأنواء، تضمّن ما كان عند العرب من العِلم بالسماء، والأنواء، ومهابّ الرياح، وتفصيل الأزمان، وغير ذلك من هذا الفنّ. فهذا ما كان عند العرب من المعرفة. فأمّا علم الفلسفة فلم يمنحهم الله تعالى شيئًا منه، ولا هيّأ طباعهم للعناية به، ولا أعلم أحدًا من صميم العرب اشتُهر به إلّا أبا يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي، وأبا محمد الحسن بن أحمد الهمداني.

بلاد العرب

وأمّا بلاد العرب فهي المعروفة بجزيرة العرب سمّيت جزيرة؛ لأنّ البحر محيطٌ بها من جهاتها الثلاث التي هي المغرب والجنوب والمشرق. ففي مغربها خليج جُدّة، والجار، وأيلة، والقلزم الخارج من البحر الكبير ببحر الزنج والهند. وفي جنوبها بحر عدن وهو بحر الهند الكبير، وفي مشرقها خليج عُمان والبحرين والبصرة وأرض فارس الخارج أيضًا من بحر الهند الكبير. وأمّا شمال جزيرة العرب فأطراف الشام وحفاف بلادها الجنوبية ما بين الحجر، وهو بلاد ثمود إلى دومة الجندل وما اتصل بها من البلاد المطلّة على السماوة.

وجزيرة العرب أربعة أجزاء كبار وهي: الحجاز، ونجد، وتهامة، واليمن. ومسافة جزيرة العرب في الطول وذلك ما بين عدن وبين أطْرَاف الشام نحوٌ من أربعين مرحلة، ومسافتها في العرض، وذلك ما بين ساحل بحر أيلة والجار وجُدّة وبين العُذيب، وما اتّصل به من ريف العراق نحوٌ من خمس وعشرين مرحلة.

فأمّا اليمن فكانت دارَ قحطان، ومقرَّ عزّها، ومجتمعَ شملها من زمان يعرب بن قحطان إلى خراب مأرب، وما اتّصل بها من أرض اليمن في أيام شمر يرعش من ملوك حِمْيَر، وفي أيام داوود - عليه السلام - من ملوك بني إسرائيل. وفي أيام كيخسرو الثالث من ملوك الطبقة الثالثة من ملوك الفرس. وذلك بعد الطوفان بألفي سنة وستين سنة شمسية.

وكان سبب خراب مأرب ما صحّ به الخبر من الطوفان الصغير الذي طَمَا به سيل العرم على سدّ مأرب، فخرّبه، وأفسد عمائر مأرب وكثيرًا من البلاد. وكان سكّان مأرب الأزد وما والاها، فلمّا

خربت تفرّقوا في البلاد، فلحقت الأوس والخزرج، وهم الأنصار، بيثرب من أرض الحجاز، وهي مدينة النبي صلى الله عليه وسلّم عليه السلام، ولحقت خزاعةُ بمكة وما حواليها من أرض تهامة، ولحقت وادعة ويَحمد وخزامٍ وجديل ومالك والحارث والعتيك بعُمان فهم أزدُ عُمان، ولحقت ماسحة وميدعان ولهب وعامر ويَشْكُر وبارق وعلي بن عثمان وشمران والحجر بن الهند ودوس بالسّراة، وهو جبل عظيم يقطع بلاد العرب طولاً من تلقاء اليمن إلى أطراف الشام، ولحق مالك بن عثمان بن دوس بالعراق، ولحقتْ جفنة وآل محرِّق بن عمرو بن عامر وقضاعة بالشام. وفي خروج غير مَن ذكرنا من العرب عن جزيرة العرب من إياد وربيعة إلى الشام وديار ربيعة من أرض الجزيرة أخبارٌ ليس هذا موضع ذكرها.

فهذه كانت حال العرب في الجاهلية في علومها ودياناتها ومساكنها ومعايشها. وأمّا حال العرب في الإسلام فعلى ما نذكره ها هنا بأوجز ما يمكننا وأخصره إنْ شاء الله تعالى.

كانت العرب حين بعث النبي صلى الله عليه وسلّم قد تفرّق مُلْكها، وتشتت أمرها، فضمّ الله تعالى به شاردَها، وسكن نافرها، وجمع عليه جماعةً ممن كان بجزيرة العرب من قحطان وعدنان، فآمنوا به، وانقادوا إليه، ورفضوا جميعًا ما كانوا يدينون به من عبادة الأوثان، وتعظيم الكواكب، وأفردوا الله تعالى بالتعظيم والتمجيد، والربوبيّة والتّوحيد، والتزموا شريعة الإسلام من اعتقاد حدوث العالم وخرابه، والبعث والنّشور والجزاء، ومن العمل بالطاعات من الصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك من شريعة الإسلام.

ثم لم يلبث رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلّا قليلًا حتّى توفي، وخَلَفَه أصحابه أبو بكر الصدّيق، ثم عمرُ الفاروق، ثم عثمانُ الشهيد، ثم عليٌّ فمهّدوا البلاد، وغلبوا الملوك، واحتووا على الممالك، وبلغت مملكة الإسلام في أيام عثمانٍ الجلالة والسّعة إلى حيث نبّه النبي صلى الله عليه وسلّم في قوله: "زُويَتْ لي أقاصي الأرضِ، فأُريت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ مُلك أمّتي ما زويَ لي منها". فأباد الله تعالى بدولة الإسلام دولةَ الفرس بالعراق وخراسان وغيرَها من ديار الفرس، ودولةَ الروم بالشام، ودولةَ القِبْط بمصر ونواحيها، وجعل الله تعالى بالنبي محمد صلى الله عليه وسلّم مُلك العرب في عدنان، ثم في عمومة النبي - عليه السلام - وهي قريش حُكمًا من الله تعالى ماضيًا، وقضاء منه نافذًا، وتلك عادته في الأمّم وسننه في القرون كما قال عز وجل: (وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ...).

صدر الإسلام

وكانت العرب في صدر الإسلام لا تُعنى بشيء من العلوم إلّا بلغتها، ومعرفة أحكام شريعتها، حاشا صناعة الطبّ، فإنها كانت موجودة عند أفراد العرب غير مذكورة عند جماهيرهم لحاجة الناس طرًّا إليها، ولما كان عندهم من الأثر من النبي صلى الله عليه وسلّم في الحثّ عليه، حيث يقول: "يا عباد الله تداووا، فإن الله عز وجلّ لم يضع داء إلّا وضع له دواء إلا واحدًا وهو الهرم".

فكان من الأطباء على عهد النبي صلى الله عليه وسلّم - عليه السلام - الحارث بن كلدة الثّقفي. وكان يعلّم الطب بفارس واليمن، وكان يضرب العود، وبقي إلى أيام معاوية بن أبي سفيان. وكان منهم ابن أبي رَمِثَة التميمي، وهو الذي قال: رأيت بين كتفي النبي صلى الله عليه وسلّم - عليه السلام - خاتم النبوة، فقلتُ: إنّي طبيبٌ فدعني أعالجه، فقال: أنت رفيق، والطبيب الله تعالى. وكان منهم ابن أبحر الكناني طبيب ماهر، وكان في أيام عمر بن عبد العزيز، وكان عمر يبعث إليه بما به إذا مرض. وكان منهم خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وكان بصيرًا بالطب والكيمياء، وله في الكيمياء رسائلُ وأشعارٌ بارعةٌ دالّةٌ على معرفته وبراعة فهمه. فهذه كانت حال العرب في الدولة الأمويّة.

فلمّا أراد الله - تبارك وتعالى - الهاشميةُ وصَرف المُلك إليهم، ثابَتِ الهمم من غفلتها وهبّت الفطن من سنتها. فكان أوَّل مَن عُني منهم بالعلوم الخليفةُ الثاني أبو جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم. فكان، مع براعته في الفقه، وتقدّمه في عِلم السنن، راغبًا في علوم الفلسفة وخاصّة في صناعة النجوم، فكان كَلِفًا بها محبًّا لأهلها. ثمّ لمّا أفضت الخلافة منهم إلى الخليفة السابع عبد الله المأمون بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور، وتمم ما بدأ به جدّه المنصور، فأقبل على طلب العلم في مواضعه، واستخراجه من معادنه بفضل همّته الشريفة، وقوّة نفسه الفاضلة، فراسَلَ ملوك الروم، وأتحفهم بالهدايا الخطيرة، وسألهم صلته بما لديه من كتب الفلاسفة، فبعثوا إليه منها بما حضرهم من كتب أفلاطون وأرسطوطاليس وأبقراط وجالينوس وأقليدس وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة، واستجاد لها مهرة التّراجمة، وكلّفهم إحكام ترجمتها، فترجمتْ له على غاية ما أمكن. ثم حضّ الناس على قراءتها، ورغّبهم في تعلّمها، فنفقت سوق العلم في زمانه، وقامت دولة الحِكمة في عصره، وتنافس أولو النّباهة في العلوم لما كانوا يرونه من إحظائه لمنتحليها، وإخصاصه لمتقلديها، فكان يخلو بهم، ويأنس بمناظرتهم، ويلتذّ بمذاكرتهم، فينالون بذلك عنده المنازل الرفيعة، والمراتب السنيّة.

وكذلك كانت سيره مع سائر العلماء من الفقهاء والمحدّثين والمتكلّمين وأهل اللغة والأخبار والمعرفة بالشعر والنّسب. فأتقن جماعة من ذوي الفنون والتعلّم في أيّامه كثيرًا من أجزاء الفلسفة، وسنّوا لمن بعدهم منهاج الطلب، ومهّدوا أصول الأدب حتى كادتْ الدولة العباسية تضاهي الدولة الرومية أيام كمالها واجتماع شملها. ثمّ بدأت تنتقص بتمام ثلاثمئة سنة خلت لتاريخ الهجرة مذ اختلّ الملك،

وتغلب عليه النساء والأتراك. فلم يزل الناس يزهدون في العلم، ويشتغلون عنه بتراكم الفتن إلى أنْ كاد العِلم يرتفع جملة في زماننا هذا، ولله الحمد على كل حال.

العلوم في الدولة العبّاسيّة

وإذْ قد ذكرنا هذه المقدّمة من أخبار العرب، فلنذكر الآن مَن عُرف في الدولة العباسية من المسلمين عربيًا كان أو أعجميًّا بشيء من علوم الفلسفة. فنقول: إنّ أوّل علم اعتُني به من علوم الفلسفة علم المنطق والنّجوم.

فأمّا المنطق فإنّ أوّل مَن اشتُهر به في هذه الدولة عبد الله بن المقفع، الخطيب الفارسي، كاتب أبي جعفر المنصور فإنّه ترجم كُتب أرسطوطاليس المنطقية الثلاثة التي في صورة المنطق وهي: كتاب قاطاغورياس، وكتاب باري مانياس، وكتاب أنالوطيقا. وذكر أنّه لم يكن ترجم منها إلى وقته إلّا الكتاب الأول فقط. وترجم مع ذلك المدخل إلى كتب المنطق المعروف بأيساغوجي من تأليف فريفوريوس الصّوري. وعبَّر عمّا ترجم به من ذلك عبارة سهلة قريبة المأْخذ، وترجم مع ذلك الكتاب الهندي المعروف بكتاب كليلة ودمنة، وهو أوّل من ترجمه من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية. وله تواليف حِسَان، منها رسالته في الأدب والسياسة، ومنها رسالته المعروفة باليتيمة في طاعة السلطان.

وأمّا عِلم النجوم فأوّل مَن عُني به في هذه الدولة محمد بن إبراهيم الفزاري، وذلك أنّ الحسين بن محمد بن حميد، المعروف بابن الآدمي، ذكر في زيجه[3] الكبير المعروف بنَظْم العَقْد أنّه قَدِم على الخليفة في سنة ست وخمسين ومئة، رجل من الهند، عالمٌ بالحساب المعروف بالسند هند في حركات النجوم مع تعاديل معمولة على كردجات محسوبة لنصف نصف درجةٍ، مع ضروب من أعمال الفلك من الكسوف ومطالع البروج، وغير ذلك في كتاب يحتوي على اثني عشر بابًا.

وذكر أنّه اختصر من كردجات منسوبة إلى مَلِك من ملوك الهند يُسمّى قبغر، وكانت محسوبة دقيقة دقيقة، فأمر المنصور ترجمة ذلك الكتاب إلى اللغة العربية، وأن يؤلّف منه كتاب تجده العرب أصلًا في حركات الكواكب، فتولّى ذلك محمد بن إبراهيم الفزاري، وعمل منه كتابًا يسميه المنجمون "السند هند". وتفسير السند هند باللغة الهندية (الدهر الداهر). فكان أهل ذلك الزمان يعملون به إلى أيام الخليفة المأمون، فاختصره له أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي، وعمل منه زيجه المشهور لبلاد الإسلام، وعدّل فيه على أوساط السند هند، وخالفة في التعاديل والميل، فجعل تعاديله على مذاهب أهل الفرس، وميل الشمس فيه على مذهب بطليموس، واخترع فيه من أنواع التقريب أبوابًا حسنة لا تفي بما احتوى عليه من الخطأ البيّن الدّال على ضعفه في الهندسة، وبعده عن التحقيق بعلم الهيئة. فاستحسنه أهل ذلك الزمان من أصحاب السند هند، وطاروا به كل مطير، وما زال نافقًا عند أهل العناية بالتعديل إلى زماننا هذا.

فلمّا أفضت الخلافة إلى عبد الله المأمون بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور، وطَمِحتْ نفسه الفاضلة إلى درك الحِكمة، وسمتْ همّته الشريفة إلى الإشراف على علوم الفلسفة، ووقف العلماء في وقته على كتاب المجسطي، وفهموا صورة آلات الرصد الموصوفة فيه، بعثه شرفه وحَداه نُبْله على أن جمع علماء أهل عصره من أقطار مملكته، وأمرهم أن يصنعوا مثل تلك الآلات، وأن يقيسوا بها الكواكب ويعرفوا منها أحوالها كما صنعه بطليموس ومَن كان قبله. ففعلوا ذلك، وتولوا الرصد بها بمدينة الشماسية من بلاد دمشق من أرض الشام، سنة أربع عشرة ومئتين.

فوقفوا على زمان سنة الشمس الرصديّة، ومقدار ميلها، وخروج مركزها، وموضع أوجِها، وعرفوا مع ذلك بعض أحوال باقي الكواكب من السيّارة والثابتة، فقطع بهم عن استيفاء غرضهم موتُ الخليفة المأمون في سنة ثماني عشر ومئتين، فقيّدوا ما انتهوا إليه وسمّوه الرصد المأموني. وكان الذين تولوا ذلك يحيى بن أبي منصور، كبير المنجّمين في عصره، وخالد بن عبد الملك المروزي، وسند بن علي، والعباس بن سعيد الجوهري. وألّف كل واحد منهم في ذلك زيجًا منسوبًا إليه، موجودًا بأيدي الناس إلى اليوم. فكانت أرصاد هؤلاء أوّل، أرصادٍ كانت في مملكة الإسلام.

ولمْ يزل خواص من المسلمين وغيرهم من المتّصلين بملوك بني العباس وسواهم من ملوك الإسلام منذ ذلك الزمن إلى وقتنا هذا يعنون بصناعة النجوم، والهندسة، والطب، وغير ذلك من العلوم القديمة، ويؤلّفون فيها الكتب الجليلة، ويظهرون منها النتائج الغريبة.

فيلسوف العرب

وممن اشتهر منهم بأحكام العلوم والتوسّع في فنون الحكمة يعقوب بن إسحاق الكِنْدي، فيلسوف العرب، وأحد أبناء ملوكها. وكان أبوه إسحاق بن الصبّاح أميرًا على الكوفة للمهدي والرشيد، وكان الأشعث بن قيس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلّم.

وكان قبل ذلك مَلكًا على كِنْدة وكان أبوه قيس بن معدي كرب مَلكًا على جميع كندة أيضًا، عظيم الشأن، وهو الذي مدحه الأعشى أعشى بن قيس بن ثعلبة، بقصائده الأربع الطوال التي أولاهنَّ:

لَعَمْرك ما طولُ هذا الزَمَنْ

والثانية:

رحلت سميّة غُدوةً أجمالها

والثالثة:

أأزمعتَ من آل ليلى ابتكارًا

والرابعة:

أتهجرُ غانيةً أم تَلُم

وكان أبوه معدي كرب بن معاوية مَلكًا على بني الحارث الأصغر بن معاوية في حضرموت، وكان أبوه معاوية بن جبلة مَلكًا بحضرموت أيضًا على بني الحارث الأصغر. وكان معاوية بن الحارث الأكبر، وأبوه الحارث الأكبر، وأبوه معاوية، وأبوه ثور ـ مُلوكًا على معدّ بالمشقَّر واليمامة والبحرين.

ولم يكن في الإسلام من اشتهر عند الناس بمعاناة علوم الفلسفة حتى سمّوه فيلسوفًا غير يعقوب هذا، وله في أكثر العلوم تواليفُ مشهورةٌ من المصنفات الطّوال والرسائل القصار يزيد عددها على خمسين تأليفًا. فمن كُتبه المشهورة كتاب التوحيد المعروف بفم الذّهب، ذَهَبَ فيه إلى مَذهب أفلاطون من القول بحدوث العالم في غير زمان هذا، ونصر هذا المذهب بحجج غير صحيحةٍ، بعضها سوفسطانية، وبعضها خطبيّة. ومنها كتابه في الردّ على المنائية إحدى فرق الضلال القائلة بالأصلين القديمين، ومنها رسالته في ماهية ما بعد الطبيعة، ومنها كتابه في إثبات النبوّة، ومنها كتابه في علم الموسيقى المعروف بالمؤنِس، ومنها رسالته في تسلية الأحزان، ومنها كتاب آداب النفس، ومنها

كتبه في علم المنطق، وهي كتب قد نفقت عند الناس نفاقًا عامًّا، وقلما ينتفع بها في العلوم؛ لأنها خالية من صناعة التحليل التي لا سبيل إلى معرفة الحقّ من الباطل في كل مطلوب إلّا بها.

وأمّا صناعة التركيب، وهي التي قصد يعقوب في كتبه هذه إليها، فلا ينتفع بها إلّا مَن كانتْ عنده مقدّمات غيره، فحينئذ يمكنه التركيب، ومقدّمات كل مطلوبٍ لا توجد إلا بصناعة التحليل. ولا أدري ما حَمَل يعقوب على الإضراب عن هذه الصناعة الجليلة! هل جهل مقدارها؟ أو ضنّ على الناس بكشفها؟ وأي هذين كان فهو نقص فيه. وله بعد هذا رسائل كثيرة في علوم جمّة ظهرت له فيها آراءٌ فاسدةٌ، ومذاهبُ بعيدةٌ عن الحقيقة.

ومنهم أحمد بن محمد السرخسي (ت 286هـ/ 899م)، تلميذ يعقوب بن إسحاق الكندي (ت نحو 260هـ/ نحو 873م)، أحد المتفننين في علوم الفلسفة. وله تواليف جليلة في الموسيقى والمنطق وغير ذلك، حسنةُ العبارة، جيدةُ الاختصار.

طبيب المسلمين

ومنهم محمد بن زكريا الرَّازي، طبيب المسلمين غير مُدافع، وأحد المهرة في علم المنطق والهندسة وغيرها من علوم الفلسفة. وكان في ابتداء تعلّمه يضرب العود، ثم ترك ذلك وأقبل على تعلّم الفلسفة، فنال منها كثيرًا، وألّف نيفًا على مئة تأليف أكثرها في صناعة الطبّ، وسائرها في صنوفٍ من المعاني الطبيعيّة والإلهية؛ إلّا أنه لم يوغلٍ في العِلم، ولا فهِم غرضه الأقصى، فاضطرب لذلك رأيه، وتقلّد آراءً سخيفةً، وانتحل مذاهبَ خبيثةً، وذمّ أقوامًا لم يفهم عنهم ولا هدى لسبيلهم. ودبّر مارستان الريّ، ثم مارستان بغداد زمانًا، ثمّ عُمِي في آخر عمره، وتوفي قريبًا من عشرين وثلاثمئة.

فيلسوف المسلمين

ومنهم أبو نصر محمد بن محمد بن نصر الفارابي، فيلسوف المسلمين بالحقيقة، أخذ صناعة المنطق عن يوحنا بن جيلان المتوفَّى بمدينة السلام في أيام المُقتدِر، فبذَّ جميع أهل الإسلام فيها، وأربى عليهم في التحقّق بها، فشرح غامضها، وكشف سرّها، وقرّب تناولها، وجمع ما تحتاج إليه منها في كتب صحيحة العبارة، لطيفة الإشارة، منبّهة على ما أغلفه الكندي وغيره من صناعة التحليل، وإيحاء التعليم، وأوضح القول فيها عن مواد المنطق الخمس، وأفاد وجوه الانتفاع بها، وعرّف طرق استعمالها، وكيف تُعرف صورة القياس في كلّ مادة منها، فجاءت كتبه في ذلك الغاية الكافية، والنهاية الفاضلة.

ثمّ له بعد هذا كتابٌ شريفٌ في إحصاء العلوم والتّعريف بأغراضها لم يُسبق إليه، ولا ذهب أحد مذهبه فيه، ولا يستغني طلاب العلوم كلّها عن الاهتداء به، وتقديم النظر فيه، وله كتاب في أغراض فلسفة أفلاطون وأرسطوطاليس يشهد له بالبراعة في صناعة الفلسفة والتحقق بفنون الحكمة، وهو أكبر عون على تعلّم طريق النّظر، وتعرّف وجوه الطلب، اطّلع فيه على أسرار العلوم عِلمًا عِلمًا، وبيّن كيفية التدرّج من بعضها إلى بعض شيئًا شيئًا. ثم بدأ بفلسفة أفلاطون فعرف غرضه منها، وسمَّى تواليفه فيها، ثمّ اتّبع ذلك بفلسفة أرسطوطاليس مُقدِّمًا لها مقدّمة جليلة عرّف فيها بتدرّجه إلى فلسفته، ثم بدأ بوصف أغراضه في تواليفه المنطقية والطبيعيّة كتابًا كتابًا، حتى انتهى فيه القول في النسخة الواصلة إلينا إلى أول العلم الإلهيّ والاستدلال بالعلم الطبيعي عليه، فلا أعلم كتابًا أجدى على طالب الفلسفة منه، فإنه يعرّف بالمعاني المشتركة لجميع العلوم، والمعاني المختصة بكلّ علم منها، ولا سبيل إلّا به إلى فهم معاني قاطاغورياس، وكيف هي الأوائل الموضوعة لجميع العلوم إلّا منه.

ثمّ له بعد هذا في العلم الإلهي وفي العلم المدنّي كتابان لا نظير لهما، أحدهما المعروف بالسياسة المدنية، والآخر المعروف بالسيرة الفاضلة. عرّف فيهما بجُمَلٍ عظيمةٍ من العِلم الإلهيّ على مذهب أرسطوطاليس في المبادئ الستّة الروحانية، وكيف يؤخذ عنها الجواهر الجسمانية على ما هي عليه من النّظام واتّصال الحكمة، وعرّف فيها بمراتب الإنسان وقواه النفسانية، وفرّق بين الوحي

والفلسفة، ووصف أصناف المدن الفاضلة وغير الفاضلة، واحتياج المدينة إلى السيّر المَلكيّة والنواميس النبويّة.

وكان أبو نصر الفارابي معاصرًا لأبي بِشر مَتّى بن يونس، إلّا أنّه كان دونه في السنّ معاصرًا وفوقه في العِلم. وعلى كتب متّى بن يونس في علم المنطق معوّل العلماء ببغداد وغيرها من أمصار المسلمين بالمشرق لقرب مأخذها وكثرة شرحها. وكانت وفاته ببغداد في خلافة الراضي، وكانت وفاة أبي نصر الفارابي بدمشق في كَنَف الأمير سيف الدولة علي بن عبد الله ابن حمدان التّغلبي سنة تسع وثلاثين وثلاثمئة.

فهؤلاء هم المشاهير عندنا من أهل التّوسع في فنون المعارف. وأمّا المشتهرون بأحكام بعض أجزاء الفلسفة، فممن اشتُهر عندنا منهم بعلم حركات النجوم، وهيئة العالم سوى من تقدّم ذكره أحمدُ بنُ عبد الله البغدادي المعروف بحبش، كان في زمان المأمون والمعتصم. وله ثلاثة أزياج: أوّلها المؤلف على مذهب السّند هند، خالف منه الفزاري والخوارزمي في عامة الأعمال، واستعماله لحركة إقبال فلك البروج، وإدباره على رأي تاون الإسكندراني. واتّضح له بها مواضع الكواكب في الطّول، وكان تأليفه لهذا الزيج في أوّل أمره أيّام كان يعتقد حساب السند هند.

والثاني المعروف بالممتحن، وهو أشهرها له، ألّفه بعد أن رجع إلى معاناة الرصد، وضمّنه حركات الكواكب على ما يوجبه الامتحان في زمانه.

والثالث الزيج الصغير المعروف بالشاه. وله كتابٌ حسنٌ في العمل بالاسطرلاب.

ومنهم أحمد بن كثير الفرغاني، أحد منجّمي المأمون، وصاحب المَدخل إلى علم هيئة الأفلاك وحركات النجوم. وهو كتاب لطيف الجرم، عظيم الفائدة، يتضمّن ثلاثين بابًا احتوت على جوامع كتاب المجسطي بأهذب لفظ، وأبيَن عبارة.

علم الفَلَك والنّجوم

ومنهم موسى بن شاكر، وبنوه: محمد وأحمد والحسين، كانوا جميعًا متقدّمين في علم الهندسة وهيئة الأفلاك وحركات النجوم، ولهم عناية بأرصاد الكواكب واقتبال بقياسها. وكان موسى بن شاكر مشهورًا من منجّمي المأمون، وكان بنوه أبْصَرَ الناس بالهندسة وعِلم الحِيل. ولهم في ذلك تواليف شريفة الأغراض، عظيمة القَدْر والفائدة، مشهورةٌ عند الناس.

ومنهم عمر بن الفرخان الطبري، أحد رؤساء التراجمة والمتحققين بعلم حركات النجوم وأحكامها. ذكر أبو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخي في كتاب المذاكرات لشاذان بن بحر أنّ ذا الرئاستين الفضل بن سهل وزير المأمون استدعاه من بلده ووصله بالمأمون، فترجم له كتبًا كثيرة، وحكم بأحكام موجودة إلى اليوم في خزائن السلطان، وألّف له كتبًا كثيرة في النجوم وغيرها من فنون الفلسفة.

ومنهم أبو جعفر محمد بن سنان الحراني المعروف بالبتاني، أحد المهرة برصد الكواكب، والمقدّمين في علم الهندسة وهيئة الأفلاك وحساب النجوم وصناعة الأحكام. وله زيج جليل ضمّنه أرصاده للنيرين، وإصلاحه لحركاتها المبيّنة في كتاب بطليموس المعروف بكتاب المجسطي، وذكر فيه حركات الخمس المتحيّرة على حسب ما أمكنه من إصلاحها وسائر ما يحتاج إليه من حساب الفلك. وكان بعض أرصاده التي سمّاها في زيجه في سنة تسع وستين ومئتين من الهجرة، وذلك في السنة الثامنة من خلافة المعتَمِد على الله. ولا أعلم أحدًا في الإسلام بلغ مبلغه في تصحيح أرصاد الكواكب وامتحان حركاتها. وله بعد ذلك عناية بأحكام النجوم أدّته إلى التأليف في ذلك، فمن تأليفه فيها كتابه في شرح المقالات الأربع لبطليموس.

ومنهم الفضل بن حاتم النيريزي، كان مقدًّما في علم الهندسة وهيئة الأفلاك وحركات النجوم، وله تواليف مشهورة، منها: كتابه الذي شرح فيه كتاب المجسطي، وكتابه في شرح كتاب أقليدس، وزيج كبير على مذهب السند هند.

ومنهم الحسن بن الصباح، له زيج أثبت أوساط الكواكب فيه على مذهب السند هند، وتعاديلها على مذهب بطليموس، ومثّل الشمس على ما يؤدي إليه الرصد في زمانه.

ومنهم محمد بن إسماعيل التنوخي المنجّم الذي دخل إلى الهند، وصدر عنها بغرائب من علم النجوم، منها حركة الإقبال والإدبار وغير ذلك.

ومنهم علي بن ماخور أحد العلماء بحركة الكواكب والمعاينين لأرصادها.

ومنهم أبو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخي، عالم أهل الإسلام بأحكام النجوم، وصاحب التواليف الشريفة، والمصنفات المفيدة في صناعة الأحكام وعلم التعديل. وكان مع ذلك أعلم الناس بسِيَر الفرس وأخبار سائر العجم. فمن كتبه في صناعة الأحكام: كتاب الطبائع، وكتاب الألوف، وكتاب المدخل الكبير، وكتاب القرانات، وكتاب الدول والمِلل، وكتاب الملاحم، وكتاب الأقاليم، وكتاب الهيلاج والكدخاه، وكتاب المقالات في المواليد، وكتاب النّكت، وكتاب تحاويل سني المواليد، وغير ذلك.

ومن كتبه في حركات النجوم: زيجه الكبير، وهو كثير الفائدة، جامعٌ لأكثر عِلم الفلك بالقول المطلق المجرّد من البرهان. وكتاب الزيج الصغير، وهو المعروف بزيج القرانات، يتضمّن معرفة أوساط الكواكب لأوقات اقتران زحل والمشتري منذ عهد الطوفان. وكان أبو معشر مُدمنًا على شرب الخمر مشتهرًا بمعاقرتها، وكان يعتريه صرع عند أوقات الامتلاءات القمريّة، وكان معاصرًا لأبي جعفر محمد بن سنان البتاني.

ومنهم الحسن بن الخصيب، أحد المتقدّمين في علم الأحكام، وفي علم التعديل، وله زيجٌ مشهورٌ، وكتابٌ حسنٌ في المواليد.

ومنهم أحمد بن يوسف صاحب الكتاب المؤلَّف في النسبة والتناسب لبطليموس.

ومنهم أحمد بن المثنى بن عبد الكريم صاحب تعليل زيج الخوارزمي. ومنهم عمرو بن محمد بن خالد بن عبد الملك المرورروذي، له زيج مختصر على المذهب الممتحن الذي ظهر على يدي جَدِّه خالد بن عبد الله المرورروذي، ويحيى بن أبي منصور، وسيّد بن علي، والعباس بن سعيد الجوهري المتقدّم ذكرهم.

ومنهم محمد بن الحسين بن حميد، المعروف بابن الآدمي، صاحب الزيج الكبير الذي أكمله بعد وفاته تلميذُه القاسم بن محمد بن هاشم المدائني، المعروف بالعلوي. وسمّاه كتاب نظم العَقْد، وشهره في سنة ثمان وثلاثين وثلاثمئة، وهو كتاب جامعٌ لصناعة التعديل مشتملٌ على أصول علم هيئة الأفلاك وحساب حركات النجوم على مذهب السند هند، وذكر فيه من حركة إقبال الفلك وإدباره ما لم يذكره أحد قبله. وكنّا نسمع قبل وصول هذا الكتاب إلينا من هذه الحركة ما لا يُعقل، ولا يُضمّ إلى قانون، حتّى وقع هذا الكتاب إلينا، وفهمنا صورة هذه الحركة الغريبة، فكان ذلك سببًا إلى التمرس بها زمانًا حتّى ظهر إلينا منها ما لا نظنّ ظهر إلى غيرنا، وتعقّبنا فيها أشياء، قد بيَّنتها في كتابي المؤلف في إصلاح حركات النجوم.

ومنهم أبو محمد الهمداني المعروف بابن ذي الدُّمينة، أحد أشراف العرب. المؤلِّف أنساب حِمْيَر وأيام ملوكها. وهو كتاب عظيم الفائدة يشتمل على عشرة فنون:

الفنّ الأول منها في اختصار المبتدأ. وأصول أنساب العرب والعجم، وأنساب ولد مالك بن حِمْيَر.

والفن الثاني في نسب ولد الهميسع بن حِمْيَر.

والفن الثالث في فضائل قحطان.

والفن الرابع في السيرة القديمة من عهد يعرب بن قحطان إلى عهد أبي كرب أسعد الكامل، وهو تبَّع الأوسط.

والفن الخامس في السِّيرة الوسطى من عهد أبي كرب إلى عهد ذي نواس.

والفن السادس في السيرة الأخيرة، وذلك من عهد ذي نُواس إلى عهد الإسلام.

والفن السابع في التّنبيه على الأخبار الباطلة والحكايات المُستحيلة.

والفن الثامن في ذكر قصور حِمْيَر ومدنها ودفائنها وأشعارها.

والفن التاسع في أمثال حِمْيَر وحكمها وحروبها.

والفن العاشر في معارف همدان.

وفي أثناء هذا الكتاب جملٌ حسانٌ من حساب القرانات وأوقاتها، ونُبذٌ من علم الطبيعة، وأمور أحكام النجوم، وآراء الأوائل في قِدم العالم وحدثه، واختلافهم في أدواره، وفي تناسل الناس، ومقادير أعمارهم، وغير ذلك. وله بعد هذا تواليف حسان منها كتاب سرائر الحكمة، والتعريف بجمل علم الهيئة والأفلاك، ومقادير حركات الكواكب، وتبيين علم أحكام النجوم، واستيفاء ضروبه، واستيعاب أقسامه. ومنها كتاب القوى، ومنها كتاب يعسوب في الرمي والقسي والسهام والنصال.

ووجدتُ بخط أمير الأندلس الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر لدين الله أنّ أبا محمد الهمداني توفي في سجن صنعاء في سنة أربع وثلاثين وثلاثمئة.

ومنهم أبو الحسين عليٍ بن عبد الرحمن بن يونس المصري، كان مختصًّا بعلم النجوم متصرًّفا في سائر العلوم، بارعَ الشعر. وعلى إصلاحه لزيج يحيى بن أبي منصور تعويلُ أهلِ مصر في تقويم الكواكب اليوم.

ومنهم الحسن بن الهيثم المصري صاحب التواليف في المرائي المحرقة. أخبرني القاضي أبو زيد بن عيسى بن محمد بن عبد الرحمن بن عيسى أنه لقيه بمصر سنة ثلاثين وأربع مئة. فهؤلاء مشاهير المعتنين بعلم النجوم التعليمي البرهاني.

وأمّا علم النجوم الطبيعي، وهو معرفة أحكام الكواكب وتأثيرها في عالم الكون والفساد، فإنّ أوّل من اشتُهر به في مملكة الإسلام محمد بن إبراهيم الفزاري المذكور، وكان يذهب منه إلى مذاهب العرب، ثم تلاه في هذه الطريقة محمد بن الجهم البرمكي، وكان مع ذلك معتنيًا بالمنطق. وابن مسافر اليماني، وخالد الأموي، ويحيى بن أبي منصور، فكان هؤلاء يَجْرون مجرًى متقاربًا في التَّمذهب بمذاهب العرب في أحكام النجوم.

وأما المتحقّقون بهذه الصناعة والسالكون فيها مسالك العَجم من الفرس واليونانيين وغيرهم، فممّن اشتهر منهم يعقوب بن طارق صاحب كتاب المقالات في موالد الخلفاء والملوك وقعود من لم يعرف مولده. ومنهم ما شاء الله الهندي، صاحب التواليف الفخمة، وأبو سهل بن نوبخت الفارسي، وكان في زمان الرشيد، وابنه الفضل بن أبي سهل، وأبو علي الخياط، وأبو إسحاق بن سليمان الهاشمي

صاحب الكتاب المعروف بأبي قماش، المؤلف في تحاويل سِنِي العالم، وعمر بن الفرخان الطبري، وأبو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخي، وأبو محمد الهمداني، وجماعة سواهم.

وممَّن اشتهر بعلم الطبّ وسائر العلوم المستنبطة من العلم الطبيعي إسحاقُ بن عمران المعروف باسم سامة. كان بغدادي الأصل، ثم سكن أفريقية في دولة زيادة الله بن الأغلب، وهو الذي استجلبه من بغداد، وكان متقدًّما في جودة القريحة وصحّة العِلم، وهو الذي شهر الطب والفلسفة بديار المغرب، وله كتب جليلة منها كتاب نزهة النفس، وكتاب النَّبض، وكتاب المالنخوليا، وكتاب الفصد، وغيرها. وجرت له مع زيادة الله بن الأغلب أمور أحنقته عليه لفرط جوره وسخفه، فأمر بفصد ذراعيه، فسال دمه إلى أن مات، ثم أمر بصلبه، فصُلب ومكث مصلوبًا زمانًا طويلًا حتى عَشْش في جوفه طائر.

جابر بن حيّان

ومنهم جابر بن حيان الصوفي، كان متقدمًا في العلوم الطبيعيّة بارعًا منها في صناعة الكيمياء، وله فيها مؤلفات كثيرة، ومصنّفات مشهورة. وكان مع هذا مشرفًا على كثير من علوم الفلسفة، ومتقلّدا للعلم المعروف بعلم الباطن، وهو مذهب المتصوّفين من أهل الإسلام، كالحارث بن أسد المحاسبي، وسهل بن عبد الله التستري، ونظرائهم. وأخبرني محمد بن سعيد السرقسطي المعروف بابن المشاط الأسطرلابي، أنّه رأى لجابر بن حيان بمدينة مصر تأليفًا في العمل بالاسطرلابات تضمّن ألف مسألة لا نظير له.

ومنهم ذو النون بن إبراهيم الأحميمي، من طبقة جابر بن حيان في انتحال صناعة الكيمياء، وتقلّد علم الباطن، والإشراف على كثير من علوم الفلسفة.

ومنهم علي بن ربّن الطّبري، صاحب الكتاب المعروف بفردوس الحكمة، وهو معلم محمد بن زكريا الرازي.

ومنهم أحمد بن إبراهيم بن خالد القيرواني، المعروف بابن الجزّار، وكان حافظًا للطبّ، دارسًا لكتبه، جامعًا لتواليف الأوائل، حسن الفَهْم لها، وله مصنّفات حسنة في الطبّ وغيره، فمن أشهرها: كتابه في علاج الأمراض المعروف بزاد المسافر، وكتابه في الأدوية المفيدة المعروف بالاعتماد، وكتابه في الأدوية المركّبة المعروف بالبغية، ورسائله في النّفس وذكر اختلاف الأوائل فيها. وكان له أيضًا عناية بالتاريخ أدّته أن يؤلف مختصرًا حسنًا سمّاه كتاب التعريف بصحيح التاريخ. وكان مع هذا حسن المَذهب، فاضل السيرة، صائنًا لنفسه، معتصمًا عن الملوك، ذا وفرة وثروة.

ومنهم علي بن العباس، المعروف بابن المجوس، صاحب كتاب كامل الصناعة الطبيّة المعروف بالملكي، ألّفه للملك عضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة أبي علي حسن بن بويه الديلمي. فهو كتاب جليل مشتمل على علوم الطب وأعماله لا أعلم كتابًا مثله. فهؤلاء مشاهير علماء الإسلام عندنا من أهل العراق والشام ومصر وأفريقية.

العلوم في الأندلس

وأمّا الأندلس فكان فيها أيضًا بعد تغلّب بني أميّة عليها جماعة عُنيت بطلب الفلسفة، ونالت أجزاء كثيرة منها. وكانت الأندلس قبل ذلك في الزمان القديم خالية من العِلم لم يشتهر عندنا في أهلها أحد بالاعتناء به. إلّا أنّه يوجد فيها طلسمات قديمة في مواضع مختلفة، وقع الإجماع على أنّها من عمل ملوك رومية؛ إذْ كانتْ الأندلس منتظمة لمملكتهم. ولم تزل على ذلك عاطلة من الحكمة إلى أن افتتحها المسلمون في شهر رمضان سنة اثنتين وتسعين من الهجرة. فدامت على ذلك أيضًا لا يُعنى أهلها من العلوم إلّا بعلم الشريعة وعلم اللغة، إلى أنْ توطّد المُلك فيها لبني أمية، وبعد عهد أهلها بالفتنة، فتحرّك ذوو الفَهم والهمم منهم لطلب العلوم، وتنبّهوا لإثارة الحقائق.

أمّا دين أهل الأندلس فدين الروم من الصابئة أولًا، ثم النصرانية أخيرًا، إلى أنْ افتتحها المسلمون في التاريخ الذي ذكرناه. وأمّا مُلكهم فكان لطوائف من الأمم المختلفة تداولوها أمّة بعد أمّة، فمن تلك الأمم الروم، وكان عمالهم ينزلون مدينة طالقة العتيقة المجاورة لإشبيلية.

واتّصل ملكهم بها زمانًا طويلًا إلى أنْ غلبهم عليها القوط، فانتسخ البلد الرومي منها، واتّخذ القوط مدينة طليطلة من مدائنها العتيقة قاعدة لملكهم، وملكوا الأندلس أفخم مُلك تقريبًا من ثلاثمئة سنة إلى أنْ غلبهم المسلمون عليها في التاريخ الذي قدّمنا ذكره، واقتعد ملوكهم قرطبة وطنًا. ولم يزل مركز مُلك المسلمين بها إلى زمان الفتنة وانتشار الأمر على بني أميّة، فافترق عند ذلك شمل المُلك بالأندلس، وصار إلى عدة من الرؤساء حالهم كحال ملوك الطوائف من الفرس.

وأمّا حدود الأندلس فإنّ حدّها الجنوبي منها الخليج الرومي الخارج من ما يقابل طنجة في موضع يعرف بالزّقاق، سعته اثنا عشر ميلًا، ثم ينتهي إلى مدينة صور من مدائن الشام. وحدّاها الشمالي والغربي البحر الأعظم المسمّى أقيانس، المعروف عندنا ببحر الظلمات. وحدّها المشرقي في الجبل الذي كان فيه هيكل الزهرة الواصل ما بين البحرين: بحر الروم، والبحر الأعظم. ومسافة ما بين البحرين، وبحر الروم والبحر الأعظم في هذا الجبل ثلاث مراحل، وهو الحدّ الأصغر من حدود الأندلس.

وحدّاها الأكبران الجنوبي والشمالي، ومسافة كلّ واحد منهما نحوٌ من ثلاثين مرحلة، ومسافة حدّها المغربي نحوٌ من عشرين مرحلة، ووسط الأندلس مدينة طليطلة العتيقة التي كانت قاعدة القوط، وعرضها تسع وثلاثون درجة وخمسون دقيقة، وطولها ثمان وعشرون درجة بالتقريب، فصارتْ بذلك في قريب وسط الأقليم الخامس. وهي في وقتنا هذا الذي هو سنة ستين وأربعمئة قاعدة مُلك الأمير أبي الحسين يحيى بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن ذي النون، عظيم مُلوك الأندلس.

وأول بلاد الأندلس عرضًا المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء على البحر الجنوبي منها، وعرضها ست وثلاثون درجة، وأكثر مدنها عرضًا بعض المدائن التي على ساحلها الشمالي، وعرض ذلك الموضع ثلاث وأربعون درجة. فمعظم الأندلس في الإقليم الخامس، وطائفة منها في الإقليم الرابع، كإشبيلية ومالقة وقرطبة وغرناطة والمرية ومرسية.

وهذا الجبل الذي ذكرنا فيه هيكل الزهرة هو الحدّ المشرقي من الأندلس، هو الحاجز ما بين الأندلس وبين بلاد أفرنسة من الأرض الكبيرة التي هي بلاد أفرنجة العظمى.

والأندلس آخر المعمور في المغرب؛ لأنها منتهية إلى بحر أقيانس الأعظم الذي لا عمارة وراءه، ومسافة ما بين مدينة طليطلة، وسط الأندلس، وبين مدينة رومية، قاعدة الأرض الكبيرة، نحو من أربعين مرحلة، فهذه جملة من خبر الأندلس.

علماء الأندلس

ولنعد إلى ذِكْر علمائها الذين هم غرضنا من ذكرها، فنقول: إنّه لما كان وسط المئة الثالثة من تاريخ الهجرة، وذلك في أيّام الأمير الخامس من ملوك بني أميّة، وهو محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بالأندلس تحرّك أفراد من الناس إلى طلب العلوم، ولم يزالوا يظهرون ظهورًا غير شائع في قريب وسط المئة الرابعة فكان ممن اشتُهر من العلماء ما بين هاتين المئتين وعُني بعلم الحساب والنجوم أبو عبيدة مسلم بن أحمد بن أبي عبيدة الليثي المعروف بصاحب القِبْلة. وإنما عرف بذلك؛ لأنّه كان يشرق كثيرًا في صلاته، وكان عالمًا بحركات الكواكب وأحكامها، وكان مع ذلك صاحب فقه وحديث، ورحل إلى المشرق، فسمع بمكة من علي بن عبد العزيز، وبمصر من المزني، والربيع بن سليمان المؤذّن، ويونس بن عبد الأعلى، ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم وجماعة سواهم، وفيه يقول أحمد بن عبد ربّه الشاعر:

أبا عُبَيْدَة ما السؤال عن خبرٍ

يحكيهِ إلَّا سُؤالاً للذي سألا

أبيتَ إلَّا شذوذًا عن جماعتِنا

ولم يُصب رَأْيُ من أرجا ولا اعتزلا

كذلك القِبْلَة الأولى مُبَدَّلَةٌ

وقد أبَيْتَ فما تَبْغي بها بدلا

زَعَمْتَ بَهْرامَ أو بَيْدَخْت يرْزُقُنا

لا بل عطارِدَ أو بَرْجيسَ أو زُحَلا

وقلتَ إنَّ جميعَ الخلقِ في فَلَكٍ

بهمْ يحيطُ وفيهمْ يَقْسِمُ الأجَلا

والأرضُ كوريّة حفّ السماء بها

فَوقًا وتحَتًا وصارت نُقَطةَ مثلا

صَيْفُ الجَنوب شِتاءٌ للشمال بها

قد صار بينهما هذا وذا دُولا

فإنَّ كانونَ في صَنْعا وَقَرْطُبَةٍ

بردٌ وأيلولُ يُذكي فيهما الشُّعُلا

هذا الدليل ولا قولٌ غررت به

من القوانين تجلي القول والعملا

كما استمرّ ابن موسى في غَوايته

فوعّر السهلَ حتى خِلْته جبلا

أَبلِغْ معاوية المُصغي لقولهِما

أَني كفرت بما قالا وما فعلا

ابن موسى هو قاسم بن موسى المعروف بالأقشتين الكاتب، ومعاوية هو أحد القرشيين الشبانسيين. وتوفي أبو عبيدة هذا في سنة خمس وتسعين ومئتين.

ومنهم يحيى بن يحيى المعروف بابن السمينة من أهل قرطبة، كان بصيرًا بالحساب والنجوم والطبّ، متصرفًا في العلوم، متفنِّنا في ضروب المعارف، بارعًا في علم النّحو واللغة والعروض ومعاني الشعر والفقه والحديث والأخبار والجَدل، وكان معتزلي المذهب، ورحل إلى المشرق ثم انصرف وتوفي في سنة خمس عشرة وثلاثمئة.

ومنهم محمد بن إسماعيل المعروف بالحكيم، كان عالماً بالحساب والمنطق، دقيق الذهن لطيف الخاطر، وكان مع ذلك نَحْويًّا ولُغويًّا وتوفي سنة إحدى وثلاثين وثلاثمئة، ثم لمّا مضى صَدْرٌ من المئة الرابعة انتدبه الأمير الحَكَم المستنصِر بالله بن عبد الرحمن الناصر لدين الله، وذلك في أيام أبيه، إلى العناية بالعلوم وإيثار أهلها، واستجلب من بغداد ومصر وغيرهما من ديار المشرق عيون التواليف الجليلة والمصنّفات الغريبة في العلوم القديمة والحديثة، وجمع منها في بقيّة أيام أبيه، ثم في

مُدة مُلكه من بعده ما كان يضاهي ما جمعته ملوك بني العباس في الأزمان الطويلة، وتهيّأ له ذلك لفرط محبّته للعلم، وبُعْد همَّته في اكتساب الفضائل، وسموّ نفسه إلى التشبّه بأهل الحِكمة من الملوك، فكَثُر تحرّك الناس في زمانه إلى قراءة كتب الأوائل وتعلّم مذاهبهم، ثم توفي في شهر صفر من سنة ست وستين وثلاثمئة.

وولي بعده ابنه هشام المؤيد بالله، وهو يومئذ غلام لم يحتلم بعدُ، فتغلّب على تدبير مُلكه بالأندلس حاجبُه أبو عامر بن محمد المعافري القحطاني. وعمد أول تغلّبه عليه إلى خزائن أبيه الحَكَم الجامعة للكتب المذكورة وغيرها، وأبرز ما فيها من ضروب التواليف بمحضر خواصّه من أهل العِلم بالدين، وأمرهم بإخراج ما في جملتها من كتب العلوم القديمة المؤلَّفة في المنطق وعِلم النجوم وغير ذلك من علوم الأوائل حاشا كتب الطبّ والحساب، فلما تميّزت من سائر الكتب المؤلَّفة في اللغة والنحو والأشعار والأخبار والطبّ والفقه والحديث وغير ذلك من العلوم المُباحة بمذاهب الأندلس، إلّا ما أفلتَ منها وذلك أقلها، فأمَر بإحراقها وإفسادها، فأحرق بعضها، وطرح بعضها في آبار القصر، وهيّل عليها التراب والحجارة، وغيرت بضروب من التغايير، وفعل ذلك تحبُّبا إلى عوامِ الأندلس وتقبيحًا لمذهب الخليفة الحكم عندهم؛ إذْ كانتْ تلك العلوم مهجورةً عند أسلافهم، مذمومةً بألسنة رؤسائهم؛ وكان كلّ من قرأها متهمًا عندهم بالخروج عن الملّة، مظنونًا به الإلحاد في الشريعة، فسكن أكثر من كان تحرك للحِكمة عند ذلك، وخمدتْ نفوسهم، وتستّروا بما كان عندهم من تلك العلوم.

ولم يزل أولو النّباهة مذْ ذلك يكتمون لما يعرفونه منها، ويظهرون ما يجوز لهم من الحساب والفرائض والطب وما أشبه ذلك إلى أن انقرضت دولة بني أمية في الأندلس، وافترق المُلك على جماعة من المخربين عليهم في صدر المئة الخامسة من الهجرة، وصاروا طوائف واقتعد كل واحد منهم قاعدة من أمهات البلاد بالأندلس، فانشغل بهم ملوك الحاضرة العظمى قرطبة عن امتحان الناس والتعقب عليهم، واضطرتهم الفتنة إلى بيع ما كان بقي بقصر قرطبة من ذخائر وملوك الجماعة من الكتب وسائر المتاع، فبيع بأوكس ثمن وأتفه قيمة. وانتشرت تلك الكتب بأقطار الأندلس، ووجدوا في خلالها أعلاقًا من العلوم القديمة كانت أفلتت من أيدي الممتحنين لخزانة الحكم أيام المنصور بن أبي عامر.

وأظهر أيضًا كلّ مَن كان عنده من الرغبة بشيء منها ما كان لديه، فلم تزل الرغبة ترتفع من حينئذ في طلب العِلم القديم شيئًا فشيئًا، وقواعد الطوائف تتمصّر قليلًا قليلًا إلى وقتنا هذا، فالحال أفضل ما كانت بالأندلس في إباحة تلك العلوم والإعراض عن تحجير طلبها. إلّا أنّ زهد المُلوك في هذه العلوم وغيرها، واشتغال الخواطر بما دهم الثغور من تغلّب المشركين عامًا فعامًا على أطرافها، وضعف أهلها عن مدافعتهم عنها ـ قلّل طلاب العلم وصيّرهم أفرادًا بالأندلس.

فممّن كان عندهم عِلم بشيء من العلوم الرياضيّة منذ أوّل عناية الحَكَم بذلك في أيام أبيه الناصر لدين الله إلى وقتنا هذا أبو غالب حباب بن عبادة الفرائضي، كان مشهورًا بعلم العدد في وسط ملك عبد الرحمن الناصر لدين الله. وله في الفرائض تأليفٌ حسنٌ مشهورٌ عندنا إلى اليوم. وأبو أيوب عبد الغافر بن محمد، أحد المَهرة بعِلم العدد، وله أيضًا تأليفٌ حسنٌ في الفرائض وكان له سماع من أحمد بن خالد الفقيه وطبقته، وروى عنه مسلمة بن أحمد المرجيطي ونظراؤه. وعبد الله بن عبيد الله

المعروف بالسري، كان عالمًا بالعدد والهندسة، وله كتابٌ مشهورٌ في السبع، وكان مع ذلك رجلًا ناسكًا فقيهًا إمامًا بالنحو واللغة، وكان ينسب إليه العلم بصناعة الكيمياء، وكان الحكم المستنصر بالله يعظّمه، ويؤثره، ويروم الاستكثار منه، فيقبضه عنه وَرَعُه، ويكفّه عن مداخلته زهدُه.

وأبو بكر بن أبي عيسى واسمه أحمد بن محمد بن أحمد الأنصاري صاحب النبي صلى الله عليه وسلّم ، كان متقدِّما في علم العدد والهندسة والنجوم، وكان يجلس لتعليم ذلك في أيام الحَكَم: أخبرني أبو عثمان سعيد بن محمد بن البغونش الطليطلي أنّه كان يسمع معلّمه مسلمة بن أحمد المرجيطي عند ذكر ابن أبي عيسى هذا، وكان مُعلّمه، وعليه تخرّج في صناعة الهندسة، ويقرّ له بالسبق فيها وفي سائر العلوم الرياضية.

وعبد الرحمن بن إسماعيل بن بدر المعروف بالإقليدسي، كان متقدًّما في علم الهندسة معتنيًا بصناعة المنطق، وله تأليفٌ مشهورٌ في اختصار الكتب الثمانية المنطقية. أخبرني عنه ابن أخته أبو العباس أحمد بن أبي حاتم محمد بن عبد الله بن هرثمة بن ذكوان أنّه رحل عن الأندلس إلى المشرق في أيّام الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر، وتوفي هناك. وكان أبو إسماعيل بن بدر أحد وجوه أهل قرطبة المتقدّمين في الشِّعر والعربية، وولي أحكام السوق بها في أيام الخليفة الحكم.

وأبو القاسم أحمد بن محمد بن محمد العدوي المعروف بالطنيزي، كان معلِّمًا لعلم الهندسة والعد نافذًا فيها، وله كتابٌ حسنٌ في المعاملات.

وأبو عثمان سعيد بن فتحون بن ىمكرم المعروف بالحمّار السرقسطي، كان متحققًا بعلم الهندسة والمنطق والموسيقى، متصرِّفًا في سائر علوم الفلسفة، إماماً في علم النّحو واللُّغة وله تأليفٌ في الموسيقى، ورسالةٌ حسنة في المَدخل إلى علوم الفلسفة سمَّاها شجرة الحكمة، ورسالة في تعديل العلوم، وكيف درجتْ إلى الوجود من انقسام الجوهر والعرض. ونالته في أيام المنصور محمد بن أبي عامر مِحْنةٌ شديدةٌ مشهورةُ السبب، أدّته بعد انطلاقه من سجنه إلى الخروج عن الأندلس، فتوفي في جزيرة صقلية.

وأبو القاسم مسلمة بن أحمد المعروف بالمرجيط، كان إمام الرياضيين بالأندلس في وقته، وأعلم من كان قبله بعلم الأفلاك وحركات النجوم، وكانت له عناية بأرصاد الكواكب، وشغفاً بتفهّم كتاب بطليموس المعروف بالمجسطي، وله كتابٌ حسنٌ في ثمار علم العدد وهو المعنيّ المعروف عندنا بالمعاملات، وكتاب اختصر فيه تعديل الكواكب من زيج البتاني، وعُني بزيج محمد بن موسى الخوارزمي، وصرف تاريخه الفارسي إلى التاريخ العربي، ووضع أوساط الكواكب فيه لأوّل تاريخ الهجرة، وزاد فيه جداول حسنة، على أنّه اتبعه على خطئه فيه، ولم ينبّه على مواضع الغلط منه، وقد نبَّهت على ذلك في كتابي المؤلف بإصلاح حركات الكواكب والتعريف بخطأ الراصدين.

فتوفي أبو القاسم مسلمة بن أحمد قبل مبعث الفتنة في سنة ثمان وتسعين وثلاثمئة، وقد أنجب تلاميذ جلّة لم ينجب عالم بالأندلس مثلهم.

فمن أشهرهم ابن السمح، وابن الصفّار، والزهراوي، والكرماني، وابن خلدون.

فأما ابن السمح، وهو أبو القاسم أصبغ بن محمد بن السمح المهري، كان متحقّقا بعلم العدد والهندسة، متقدًّما في علم هيئة الأفلاك وحركات النجوم، وكانتْ له مع ذلك عناية بالطب، وله تواليف حسانٌ، منها كتاب المدخل إلى الهندسة في تفسير كتاب أقليدس، ومنها كتاب ثمار العدد المعروف بالمعاملات، ومنها كتاب طبيعة العدد، ومنها كتابه الكبير في الهندسة تقَصَّى فيه أجزاءً من الخط المستقيم والمقوّس والمنحني، ومنها كتابان في الآلة المسمّاة بالإسطرلاب، أحدهما في التعريف بصورة صنعتها وهو مرتّب على مقالتين، والآخر في العمل بها والتعريف بجوامع ثمارها، وهو مقسّم على مئة وثلاثين بابًا. ومنها زيجه الذي ألّفه على أحد مذاهب الهند المعروف بالسند هند، وهو كتابٌ كبيرٌ مقسَّم إلى جزئين، أحدهما في الجداول، والآخر في رسائل الجداول. وأخبرني عنه تلميذه أبو مروان سليمان بن محمد بن عبس بن الناشئ المهندس أنّه توفي بمدينة غرناطة قاعدة الأمير حبوس الصنهاجي ليلة الثلاثاء لاثني عشرة ليلة بقيتْ لرجب، سنة ست وعشرين وأربعمئة، وهو ابن ست وخمسين سنة شمسية.

وأمّا ابن الصفار فهو أبو القاسم أحمد بن عبد الله بن عمر، كان أيضًا متحقًّقا بعِلم العدد والهندسة والنجوم، وقعد في قرطبة ليعلّم ذلك. وله زيج مختصر على مذهب السند هند، وكتاب في العمل بالإسطرلاب، موجزٌ، حسنُ العبارة، قريبُ المأخذ. وخرج من قرطبة بعد أن مضى صدر من الفتنة، واستقر بمدينة دانية قاعدة الأمير مجاهد العامري من ساحل بحر الأندلس الشرقي، وتوفي بها، وقد أنجب من أهل قرطبة تلاميذ جمّة. وكان له أخ يُسمّى محمَّدا مشهور بعمل الإسطرلاب، لم يكن بالأندلس قبله أجمل صنيعًا لها منه.

وأما الزهراوي، فهو أبو الحسن علي بن سليمان، كان عالمًا بالعدد والهندسة، معتنيًا بعلم الطب، وله كتابٌ شريفٌ في المعاملات على طريق البرهان، وهو الكتاب المسمّى بكتاب الأركان.

وأما الكرماني فهو أبو الحكم عمرو بن عبد الرحمن بن أحمد بن علي الكرماني، من أهل قرطبة، أحد الراسخين في عِلم العدد والهندسة، أخبرني عنه تلميذه الحسين بن محمد الحسين بن حيّ التجيبي المهندس المنجّم أنّه ما لقي أحداً يجاريه في علم الهندسة ولا يشقّ غباره في فكّ غامضها وتبيين شكله وابتغاء أجزائها، ورحل إلى ديار المشرق وانتهى منها إلى حرّان من بلاد الجزيرة، وعُنيَ هنالك بعلم الهندسة والطب، ثم رجع إلى الأندلس، واستوطن مدينة سرقسطة من ثغرها، وجلب معه الرسائل المعروفة برسائل إخوان الصفا. ولا نعلم أحدًا أدخلها الأندلس قَبْلَه، وله عناية بالطبّ ومجربات فاضلة فيه ونفوذ مشهور في الكيّ والقطع والشقّ والبط وغير ذلك من أعمال الصناعة الطبيّة، ولم يكن بصيرًا بعلم النجوم التعليمي، ولا بصناعة المنطق، وتوفي أبو الحكم بسرقسطة سنة ثمان وخمسين وأربعمئة وقد بلغ تسعين سنة أو جاوزها بقليل.

وأمّا ابن خلدون، فهو أبو مسلم عمر بن أحمد بن خلدون الحضرمي، من أشراف أهل إشبيلية، كان متصرًّفا في علوم الفلسفة مشهورًا بعلم الهندسة والنجوم والطب، متشبهًا بالفلاسفة في إصلاح أخلاقه، وتعديل سيرته، وتقويم سياسته، وتوفي في بلده سنة تسع وأربعين وأربع مئة.

ومن مشاهير تلاميذ أبي القاسم أحمدُ بن عبد الله بن الصفّار بن برغوث، والواسطي، وابن شهر القرشي الأفطس المرواني، وابن العطار. فأمّا ابن برغوث فهو محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن

المعروف بابن برغوت. كان متحقّقا بالعلوم الرياضية مختصًّا منها بإيثار علم الأفلاك وهيئاتها، وحركات الكواكب وأرصادها، وكان له مع ذلك تحقق بعلم النحو ومعرفة القرآن والفقه والوثائق، وإشراف حسن على سائر العلوم، وكان عفيفًا حليمًا حسن السيّرة معتدل الأخلاق طيب الذِّكْر مرضيّ الأحوال، وتوفي في سنة أربع وأربعين وأربعمئة.

وأما الواسطي، فهو أبو الأصبغ عيسى بن أحمد، أحد المحنّكين بعلم العدد والهندسة والفرائض، وقعد بقرطبة لتعليم ذلك وله أيضًا بَصَرٌ بجمل من علم هيئة الأفلاك وحركات النجوم، وهو باق إلى وقتنا هذا.

وأمّا ابن شهر، فهو أبو الحسن مختار بن عبد الرحمن بن مختار بن شهر الرعيني، كان بصيرًا بالهندسة والنجوم، متقدًّما في علم اللغة والنحو والحديث والفقه، بليغًا شاعرًا متكلّمًا ذا دهاء ومعرفة بالسير والتواريخ، ولي القضاء في مدينة المرية، آخر دولة زهير العامري في سنة سبع وعشرين وأربعمئة، وتوفي بمدينة قرطبة، وهو باق على القضاء بالمرية، سنة خمس وثلاثين وأربعمئة.

وأمّا القرشي الأفطس المرواني، فهو يحيى بن هشام بن أحمد بن محمد بن عبد الملك بن الأصبغ، كان عالمًا بالعدد والهندسة وعلم النحو، متقدًّما في علم اللسان.

وأمّا ابن العطار، فهو محمد بن خيرة العطار، مولَى الكاتب محمد بن أبي هريرة، خادم الظّافر إسماعيل بن عبد الرحمن بن ذي النّون، من صغار تلاميذ ابن الصفار، متقنٌ لعلم العدد والهندسة والفرائض، وهو في وقتنا هذا يعلّم بذلك في مدينة قرطبة، وله أيضًا بَصَرٌ بصناعة النجوم، وعنايةٌ بعِلم حركاتها.

ومن مشاهير تلاميذ ابن السمح، أبو مروان سليمان بن محمد بن عيسى الناشئ، بَصِير بالعدد والهندسة معتنٍ بصناعة الطبّ وأحكام النجوم، وأبو جعفر أحمد المعروف بابن الصفّار المتطبب وهو من مشاهير تلاميذ أبي مسلم بن خلدون القرشي.

ومن نظراء هذه الطبقة عبد الله بن أحمد السرقسطي، كان نافذًا في علم العدد والهندسة والنجوم، له رسالة يذكر فيها فساد مذهب السند هند في حركات الكواكب وتعديلها ويحتجّ بأشياء قد رددنا عليه فيها، وبيّنا موضع الغلط منها في كتابنا المؤلَّف في إصلاح حركات الكواكب والتنبّه على خطأ المنجِّمين، وتوفي بمدينة بلنسية سنة ثمانٍ وأربعين وأربعمئة.

ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الهوزني الإشبيلي، كان بصيرًا بعلوم الرهان واللسان والمساءَلة، متفنِّنًا في ضروب المعارف، توفي بمصر سنة عشرين وأربعمئة.

ومن مشاهير أصحاب ابن برغوث: ابن الليث، وابن الجلاب، وابن حيّ.

فأمّا ابن الليث، فهو محمد بن أحمد بن محمد بن الليث، كان متحقًّقا بالعدد والهندسة معتنيًا بعلم حركات الكواكب وأرصادها، وكان مع هذا بصيرًا بالنحو واللغة والفقه ذا مروءةٍ كاملة ونفسٍ طيبةٍ،

وتوفي سنة خمسين وأربعمئة.

وأمّا ابن حي فهو الحسين بن محمد بن الحسين بن حي التجيبي من أهل قرطبة. كان بصيرًا بالهندسة والنجوم، كَلِفًا بصناعة التعديل، وله فيها زِيجٌ مختصرٌ على مذهب السند هند، توفي باليمن بعد انصرافه من بغداد سنة ستٍّ وخمسين وأربعمئةَ، أو سنة سبع وخمسين.

وأمّا ابن الجلّاب فهو الحسن بن عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن الجلَّاب، أحد المتحققين بعلم الهندسة وهيئة الأفلاك وحركات النجوم، وله مع ذلك عنايةٌ بالمنطق والعلم الطبيعي.

ومنهم أبو الوليد هشام بن أحمد بن هشام بن خالد الكناني المعروف بابن الوقّشي من أهل طليطلة. أحد المتفننين في العلوم والمتوسّعين في ضروب المعارف، من أهل الفكر الصحيح، والنظر الثّاقب، والتحقّق بصناعة الهندسة والمنطق، والرسوخ في علم النحو واللغة والشعر والخطابة، والأحكام بعلم الفقه والأثر والكلام. وهو مع ذلك شاعرٌ بليغٌ لَسِنٌ يقظٌ، عالِمٌ بالأنساب والأخبار والسيّر، مشرفٌ على جُمل سائر العلوم.

ولد سنة ثمانٍ وأربعمئة، وقد تقلّد القضاء من أهل طلبيرة من ثغور طليطلة قاعدة مُلك الأمير المأمون يحيى بن الظافر إسماعيل بن عبد الرحمن.

ومِن نظراء هؤلاء أبو جعفر أحمد بن خميس بن عامر بن منيح، من أهل طليطلة أيضًا، أحد المعنيين بعلم الهندسة والنجوم والطبّ، وله مشاركة في علوم اللسان.

فهؤلاء مشاهير من عني بالعلم الرياضي بالأندلس، وقد كان بها جماعةٌ غيرهم أضربتُ عن ذكرهم، إمّا لتقصيرهم عن هؤلاء، وإمّا لجهلي بأسمائهم عندنا بالأندلس.

وفي زماننا هذا أفرادٌ من الأحداث منتدبون بعلم الفلسفة، ذوو أفهام صحيحةٍ، وهمم رفيعةٍ، وقد أحرزوا من أجزائها حظًا وافرًا، منهم من سكّان طليطلة وجهاتها أبو الحسن علي بن خلف بن أحمر الصيدلاني، وأبو إسحاق إبراهيم بن يحيى النقّاش المعروف بولد الزرقيال، وأبو مروان عبد الله بن خلف الأستجي، وأبو جعفر أحمد بن يوسف بن غالب التملاكي، وعيسى بن أحمد بن العالم، وإبراهيم بن سعيد السهلي الاسطرلابي.

ومنهم من أهل سرقسطة الحاجب أبو عامر بن الأمير المقتدر بالله، أحمد بن سليمان بن هود الجذامي، وأبو جعفر أحمد بن جوشن بن عبد العزيز بن جوشن.

ومنهم من أهل بلنسية أبو زيد عبد الرحمن بن سيّد.

المنطق والفلسفة

وممَّن اعتنى بصناعة المنطق خاصة من سائر الفلسفة أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفارسي، مولى يزيد بن أبي سفيان، أصل آبائه من إقليم الزاوية غرب الأندلس، وسكن هو وآباؤه قرطبة ونالوا فيها جاهًا عريضًا، فكان أبوه أبو عمرو أحمد بن سعيد بن حزم أحدَ العظماء من وزراء المنصور محمد بن أبي عامر، ووزر ابنه المظفر بعده، وكان المدبّر لدولته، وكان ابنه الفقيه أبو محمد وزيرًا لعبد الرحمن المستظهر بالله بن هشام، ثمّ لهشام المقتدر بالله بن محمد.

ثمّ نَبَذَ هذه الطريقة، وأقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن، فعُني بعلم المنطق وألّف فيه كتابًا سمّاه «التقريب لحدود المنطق»، بَسَطَ فيه القول على تبيين طرق المعارف، واستعمل فيه مثلًا فقهيًّة، وجوامعَ شرعيَّة، وخالف أرسطوطاليس واضع هذا العلم في بعض أصوله مخالفَةَ مَن لمْ يَفْهم غرضه، ولا ارتاض في كتبه، فكتابُه من أجل هذا كثيرُ الغلط، بيّن السقط.

وأوغل بعد هذا في الاستكثار من علم الشريعة حتى نال منها ما لم ينله أحدٌ قطّ قبله بالأندلس، وصنّف فيها مصنفات كثيرةَ العدد، شريفةَ المقصد معظمها في أصول الفقه وفروعه على مذهبه الذي ينتحله، وطريقه الذي يسلكه، وهو مذهب داود بن علي بن خلف الأصبهاني، ومَن قال بقوله من أهل الظاهر ونفاه القياس والتعليل.

تبلغ تآليفه في الفقه، والحديث، والأصول، والنِّحل والمِلل، وغير ذلك من التاريخ، والنسب، وكتب الأدب، والردّ على المعارضين ـ نحو أربعمئة مجلّد، تشتمل على قريبٍ من ثمانين ألف ورقة، وهذا شيء ما علِمناه في أحدٍ ممَّن كان في دولة الإسلام قبله إلّا لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، فإنَّه أكثر أهل الإسلام تصنيفًا.

ذكر أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر الفرغاني في كتابه في التاريخ المعروف بالصّلة، وهو الذي وصل به تاريخ أبي جعفر الطبري الكبير ـ أنّ قومًا من تلاميذ أبي جعفر حصلوا أيام حياته منذ بلغ الحُلم إلى أن توفي في سنة عشر وثلاثمئة، وهو ابن ست وثمانين سنة، ثمّ قسموا عليها أوراق مصنّفاته، فصار منها لكل يوم أربع عشرة ورقة، وهذا لا يتهيّأ لمخلوق إلّا بكريم عناية الباري تعالى به، وحسن تأييده له.

ولأبي محمد بن حزم بَعدَ هذا نصيبٌ وافرٌ من علم النحو واللغة، وقِسمٌ صالح من قَرض الشعر وصناعة الخطابة.

ومنهم أبو الحسن علي بن محمد بن سيده الأعمى، عُني بعلم المنطق عنايةً طويلةً، وألف فيه تأليفًا كثيرًا مبسوطًا ذهب فيه مذهبَ مَتَّى بن يونس. وهو بعد هذا أعلم أهل الأندلس قاطبة بالنحو واللغة والأشعار وأحفظهم لذلك، حتى أنّه يستظهر كثيرًا من المصنّفات فيها كالغريب المصنّف، وإصلاح المنطق، وله في اللغة تواليف جليلة منها: «الكتاب المحكم والمحيط الأعظم»، مرتَّبٌ على حروف المعجم، ومنها كتابه «المخصص»، مرتَّبٌ على الأبواب كالغريب المصنّف، ومنها شرح إصلاح المنطق، وشرح كتاب الحماسة، وغير ذلك. وتوفي في سنة ثمان وخمسين وأربعمئة وهو قد بلغ ستين سنة أو نحوها.

فهؤلاء مشاهير أهل البرهان من علماء الأندلس. وأمّا العِلم الطبيعي والعِلم الإلهي فلم يُعنَ أحدٌ من أهل الأندلس بهما كبير عناية، ولا أعلمُ مَن عُني بهما إلّا أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن حامد المعروف بابن النبّاش البجاني، وأبا عامر بن الأمير بن هود، وأبا الفضل بن حسداي الإِسرائيلي.



1. شبيهة بغَزْل العنكبوت. ↑

2. تَنَوُّطٌ: هو طائر ينسج عشَّه كقارورة الدُّهن بين عودين من أعواد الشجرة. ↑

3. الزِّيج: كتابٌ يُحسَب سير الكواكب وتُستخرج التقويمات. ↑

Table of Contents